العبادة وأثرها

في

تربية النفس الإنسانية

بحث في

الأساس التعبدي للتربية الإسلامية

بقلم

الدكتور / عبد العزيز بن عبد الرحمن المحيميد

٥٥٤

طبع ونشر

وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

المملكة العربية السعودية

من مطبوعات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

العبادة وأثرها في تربية النفس الإنسانية

بحث في

الأساس التعبدي للتربية الإسلامية

بقلم

الدكتور / عبد العزيز بن عبد الرحمن الحميد

أشرفت وكالة شؤون المطبوعات والبحث العلمي بالوزارة على إصداره

١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المحيميد، عبدالعزيز بن عبدالرحمن

العبادة وآثارها في تربية النفس الإنسانية./ عبد العزيز ابن عبدالرحمن المحيميد.- الرياض، ١٤٢٤هـ

١٩٦ ص؛ ١٢ × ١٧ سم

ردمك: ٩ - ٤٥٧ - ٢٩ - ٩٩٦٠

١- العبادات (فقه الإسلامي). ٢-التربية الإسلامية.

أ- العنوان

ديوي ٢٥٢ ١٤٢٤/٥٤٧٣

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٥٤٧٣

ردمك: ٩ - ٤٥٧ - ٢٩ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.

أما بعد: فإن التربية الإسلامية تتميز عن غيرها من

المناهج التربوية الشائعة في العالم بعلوية المصدر وسموه وإلاهيته وربانيته، ولذلك فهي تربية متميزة في كل شيء؛ فمن حيث المصادر ـ مثلًا ـ يتوفَّر لها مصدران جليلان لا يتوفران لغيرها؛ هما الكتاب والسنة، ومن حيث الأسس فإنها تقوم على أسسٍ مبدئيةٍ قويةٍ تستمد قوتها من قوة المصدر الإلهي نفسه، وهذه الأسس تتمثل في العقيدة والعبادة والتشريع التي هي بدورها مأخوذة مباشرةً ودون أدنى تغيير أو تعديل من القرآن والسنة، وإذا كان التميز في المصادر والأسس بهذا الوضوح فإنه يكون في غيرها من الجوانب واضحاً كذلك.

ومن ذلك يتبين ـ أيضاً ـ مدى الارتباط الشديد بين التربية من جهة، والعقيدة والعبادة والتشريع من جهة ثانية في الإسلام، ومما لا شك فيه أن هذا الارتباط بحاجة إلى توضيح وتفصيل وبحث؛ وذلك لكي يتضح لدارسي التربية الإسلامية مدى التماسك والترابط والتأثير الموجود

بين كل من هذه الأسس والفكر التربوي الإسلامي بشكلٍ عام.

والعبادة بصفتها إحدى هذه الأسس ولعلاقتها المباشرة والعملية بسلوك الأفراد وتصرفاتهم ومعاملاتهم ومواقفهم فإن ارتباطها بالفكر التربوي يحتاج إلى مزيد بحثٍ وتحقيق، ولذلك فقد وقع الاختيار عليها بصفتها أساساً للتربية موضوعاً لهذه الدراسة.

وقد انحصر عمل الباحث في عرض المعنى الشامل للعبادة واستيعابه لحياة الإنسان كلها مع بيان حاجته الفطرية إليها، وأنها عنصر هام من عناصر حياته لا تستقيم بدونه، مع ذكر الخصائص التي تتميز بها العبادة الإسلامية.

وقد تضمن البحث تركيزاً خاصاً على علاقة العبادة بتربية الروح والعقل والجسم، وعلى الآثار التربوية لعبادة الله سبحانه وتعالى، وتلي ذلك خاتمة موجزة تتضمن نتائج الدراسة.

وهذا الجهد في حقيقته ما هو إلا محاولة متواضعة

يكتنفها كثير من النقص الناتج من عمل الباحث نفسه بصفته بشراً خطاءً ناقصاً.

هذا وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من عباده الذين إذا أخطأوا تابوا من خطئهم، وآبوا إلى ربهم، ولم يصروا على ما فعلوا، إنه سميع مجيب الدعاء.

الباحث

الفصل الأول

حاجة الإنسان إلى العبادة

أ ـ تمهيد:

العبادة هي حق الخالق على المخلوق، وهي الصلة بين العبد وربه، وهي الغاية التي خلق الله الخلق لأجلها؛ يقول عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ (٥٨)﴾[1]، وهي الغاية التي من أجلها أرسل الله الرسل وبعث الأنبياء عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه؛ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ . .﴾ الآية»[2].

وهي محك المفاصلة بين المسلمين والكفار فقد أمر الله

(١) سورة الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨.

(٢) سورة النحل: ٣٦.

نبيه محمداً ﷺ أن يعلن تميزه ومن معه من المسلمين عن الكفار بالابتعاد والتبريء مما يعبدون. بقوله عزوجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾[1].

وهذا هو موقف الأنبياء قبله مع أقوامهم؛ إذ يقول الله سبحانه وتعالى عن أحدهم، وهو إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦﴾[2].

والعبادة ليست متعلقة بالثقلين «الجن والإنس» فقط، وليست منحصرةً فيهم، بل إن الكون كله، وما فيه من مخلوقاتٍ؛ دقيقةً كانت أو جليلةً عابدةً لله متجهةً إليه قانتةً له؛ كما وردت بذلك الأدلة القرآنية الكثيرة.

وعبادة الكون لله ـ كما فصّلها شيخ الإسلام ابن تيمية

---

(١) سورة الكافرون.

(٢) سورة الزخرف: ٢٦.

رحمه الله مستدلاً بآيات القرآن الكريم في رسالةٍ له في قنوت الأشياء كلها لله تعالى[١] ـ تتمثل في الآتي:

١ ـ قنوت الكون وما فيه لله سبحانه وتعالى؛ إذ يقول عزوجل: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾[٢]، والقنوت هو خضوعٌ وعبادةٌ لله عزوجل، ويظهر قنوت الخلق لله فيما يأتي:

ـ طاعة المخلوقات لله، وتحركها بحسب مشيئته وأمره؛ إذ يقول عزوجل: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[٣].

ـ اعترافهم بربوبية الله لهم؛ إذ أنهم جميعاً قد ولدوا على الفطرة التي فطرهم الله عليها وهي الإيمان به رباً كما

---

(١) أحمد بن تيمية، جامع الرسائل، (المجموعة الأولى)، القاهرة: مطبعة المدني، ١٣٨٩هـ، ص ٣ـ ٤٥.

(٢) سورة الروم: ٢٦.

(٣) سورة هود: ٥٦.

جاء في حديث النبي ﷺ: «**ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(١)، ويقول عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾(٢).

ـ اضطرار الخلق ورجوعهم إلى الله وقت الشدة والكرب؛ مع أنهم يعرضون عنه وقت الرخاء واليسر؛ يقول عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾(٣).

ـ الخضوع لسنن الله وأوامره ولو بشكل جزئي

---

(١) متفق عليه، انظر: محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، استانبول: دار الدعوة، ١٤٠١هـ، ٢/ ٩٨. وانظر: مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح، استانبول: دار الدعوة، ١٤٠١هـ، ٣/ ٢٠٤٧.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٢.

(٣) سورة يونس: ١٢.

اضطراراً؛ وإن كان على كرهٍ من المخلوق، لعدم قدرته على أن يعيش منفرداً بنفسه عن الكون الذي يسير وفق نواميس الله، وهو بذلك يكون كالمنافق الذي يعيش بين ظهراني المسلمين يطيعهم في ظاهره وباطنه على خلاف ذلك.

ـ أن الخلق محلٌ لجزاء الله في الدنيا والآخرة شاءوا ذلك أم أبوا؛ فهو يجازي من يشاء وقت ما يشاء سبحانه وتعالى[١].

٢ ـ إسلام الخلق لله[٢]؛ يقول عزوجل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[٣].

٣ ـ تسبيح المخلوقات لله تعالى؛ حيث يقول: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾[٤].

(١) أحمد بن تيمية، جامع الرسائل، ص ١١، ١٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٣.

(٣) سورة آل عمران: ٨٣.

(٤) سورة الإسراء: ٤٤.

٤ـ السجود له سبحانه إذ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾(١).

وعلى ذلك فعبادة الله هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لخلقه، وهي الناموس الذي يسير الكون على نسقه ومقتضاه قانتاً لله خاشعاً مسلماً ساجداً مسبحاً، وعبادة الله هي القاعدة والطريق السوي وما عداها فهو الشذوذ والانحراف.

وإذا كان للعبادة هذا الدور الخطير في حياة البشر وحياة الجن ونظام الكون؛ فإنها بذلك تعدُّ أساساً هاماً للتربية المنبثقة عن منهج الله للحياة، إذ أن العبودية لله غاية في حد ذاتها توظف التربية لتحقيقها في حياة الفرد والمجتمع(٢).

والعبادة ليست أساساً هاماً للتربية فحسب؛ بل إنها

(١) سورة الحج: ١٨، وانظر المرجع السابق، ص ٣، ٤.

(٢) عبدالرحمن الباني، مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام، دمشق: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ، ص ٦٩.

أساسٌ للحياة، وسبب لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[1].

والعبادة ـ مع ذلك ـ أمانة وتكليف وامتحان، ائتمن الله ابن آدم على أدائها، وكلفه القيام بها امتحاناً وابتلاءً له لينظر سبحانه وتعالى ـ وهو العليم بما كان وما سيكون ـ هل يستجيب الإنسان لأمر ربه فيشكر أم يتنكب الطريق الصحيح فيكفر، وذلك أن الله خلق الإنسان وأنعم عليه بنعمة العقل التي يميز بها بين الصالح والفاسد، وركب فيه مع ذلك دوافع فطرية تدفعه إلى سلوك معين يحفظ به حياته من أكل وشرب وجماع وامتلاك ومحافظة على النفس، وغيرها، وجعل له سبحانه وتعالى حدوداً شرعية لإشباع هذه الدوافع وبلّغه شرائعه عن طريق رسله، وترك له حرية

---

(١) سورة النحل: ٩٧.

الاختيار بين الخير والشر؛ أو بين الطاعة والمعصية، وجعل له القدرة على ذلك، وهو مع ذلك قد فطره على الإيمان، وبعث إليه الرسل والأنبياء يبلغونه وحي الله وأمره ونهيه ورسالاته ابتلاءً له؛ يقول عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[1]. ويقول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾[2]، ويقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾[3].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وإذا كانت العبادة تتصف بأنها أمانة وتكليف وابتلاء لبني الإنسان فإنها بذلك تعد أساساً للتربية؛ إذ أن العبادة مقياس ومعيار للصلاح أو

---

(١) سورة الأحزاب: ٧٢.

(٢) سورة الدهر: ٢، ٣.

(٣) سورة الكهف: ٧.

الفساد؛ فتكون بذلك قاعدة للتربية تقوم على وصل الإنسان بالله، وإطلاق إرادته وعمله من إسار المادة والهوى والشهوة؛ تمهيداً لتنشئته وترقيته في مدارج الصلاح.

ولعل فيما يأتي من فقرات هذا البحث ما يزيد ذلك جلاءً ووضوحاً؛ ولكن نود قبل ذلك أن نتعرض ـ بالشرح اليسير ـ لأهم المصطلحات الواردة في عنوان الدراسة؛ وهي «العبادة» و«التربية»، والمقصود بالتربية هنا ـ طبعاً ـ «التربية الإسلامية»، وسنتناول مفردات هذا العنوان كل واحدة على حدة، ثم نجمل المعنى المقصود من خلال معاني مفرداته، وذلك فيما يأتي:

أ ـ العبادة:

نبدأ أولًا بكلمة «العبادة» فهي تتضمن ـ لغة ـ معنى الخضوع، والذل، والإذعان والطاعة؛ أو هي «الطاعة مع الخضوع»، وعَبَدَ الله؛ أي تألَّه له؛ بمعنى لجأ إليه وأحبّه

وعظمه ودعاه، و«التعبد هو التنسك»[١].

واصطلاحاً ـ كما يقول ابن تيمية ـ «العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة»[٢].

ثم يقول: «وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه،

---

(١) ابن منظور الأفريقي، لسان العرب، بيروت: دار صادر، ١٣٨٨هـ، ٣/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢، ١٣/ ٤٦٧ ـ ٤٧١.

(٢) أحمد بن تيمية، العبودية، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩٧هـ، ص ٣٨.

والرضى بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك من العبادة»[١].

وهي بذلك تشمل العبادات المأمور بها والمعاملات المجراة وفق أحكام الله، والسلوكيات والتصرفات الموافقة لمبادىء الدين، وسائر أعمال الخير والبر والمقترنة بالنية الصالحة والأداء السليم الموافق للشرع.

ب ـ التربية الإسلامية:

وأما المقصود بالتربية الإسلامية ـ في هذه الدراسة ـ فهو لا يقتصر على مجرد المنهج أو المقرر الدراسي لتدريس المواد الدينية؛ مثل التفسير، والحديث، والتوحيد، والفقه... وما إليها؛ وإنما يقصد بها تنمية الأفراد وتنشئتهم حسب المنهج الإسلامي بما يتضمنه من عقائد وأفكار ومباديء، وممارسات عملية، وتصرفات،

(١) المرجع السابق، ص ٣٨.

وأخلاق، وسلوكيات إسلامية، وبمعنى آخر تربية الناس وتنشئتهم على ضوء الإسلام المتميز بأهدافه، ووسائله، وأساليبه، ووسائطه التربوية، وذلك نابع من تميزه بعقائده، ومصادره، وعباداته، ومعاملاته، وسائر جوانبه.

وقد تعددت تعريفات التربية الإسلامية عند الباحثين المعاصرين؛ ولعل من أوجزها لفظاً وأشملها معنىً تعريفها بأنها: «عملية تقويم وتوجيه لسلوك الإنسان هدفها تطبيق المنهج الإلهي بالاستعانة بالوسائل والطرق التي حددها المنهج نفسه»[(١)].

وهذا المعنى يسع الحياة كلها، ولا يقتصر منها على مرحلة دون مرحلة، أو على جانب دون آخر؛ فالحياة كلها يمكن أن توظف في تحقيق هذا المعنى.

وبناءً على ذلك فإن المقصود من هذه الدراسة هو

---

(١) صالح أحمد الشامي، التربية الجمالية في الإسلام، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٨هـ، ص ١٢.

توضيح دور العبادة في التربية بصفتها أصلًا وأساساً تقوم عليه التربية السليمة المهتدية بهدي الإسلام، وهذه حقيقة ملموسة محسوسة؛ وليست مجرد كلام إنشائي لا يسنده الدليل؛ فالتوجه إلى الله والإيمان به فطرة أصيلة قد فطر الله الخلق عليها، وممارسة العبادة تلبية لنداء الفطرة وتحقيق لها، وإذا لم يلبَّ هذا النداء فإن النفس لا تستقر ولا تطمئن ولا تكون في وضع سويّ؛ وهذا له أثر مباشر على نوعية التنشئة والتربية والحياة التي يحياها الإنسان.

وفوق ذلك فالعبادة ذات مجال واسع في حياة الإنسان؛ بل إن الحياة كلها يمكن أن تكون عبادة إذا وجهت توجيهاً سليماً تتوفر فيه النية الطيبة والأداء السليم، والإنسان إنما يتربى لكي تستقيم حياته، ولا تستقيم حياة بدون عبادة؛ ومن هنا فالعبادة أصل للتربية وقاعدة تقوم عليها؛ بل إنها دعامة تسندها ولا تستقيم بدونها.

٢ ـ حاجة الإنسان إلى العبادة:

الإنسان مفتقرٌ إلى الله سبحانه وتعالى في كل أحواله؛ لأن الله هو الذي خلقه وأوجده من العدم، ثم أحياه ورزقه، وهو من يحفظه أو يعدمه، وهو الذي يحييه ويميته، وقد خاطب الله جنس الإنسان بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[1].

والخلق مفتقرون إليه في كل شيء؛ في الإحياء والرزق والسلامة وما يتعلق بها بل إنهم مفتقرون إلى عبادته والإيمان به؛ وذلك أنه خلقهم على فطرته التي أراد، فهم لا يحسّون بكمال طمأنينتهم وراحتهم حتى يكونوا في حالٍ موافقةٍ للفطرة التي خلقوا عليها، وهي فطرة الإيمان بالله وعبادته؛ يقول عزوجل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[2].

(١) سورة فاطر: ١٥.

(٢) سورة الروم: ٣٠.

وهو افتقار طبيعي فطري يحسه المؤمنون ويلمسونه حينما يؤدون عباداتهم ويتضرعون إلى ربهم فيجدون راحة في نفوسهم وطمأنينةً في قلوبهم تدل على أن حاجتهم إلى العبادة قد أشبعت بمجرد أدائهم لشعائر العبادة .

وهذا الافتقار الطبيعي إلى العبادة يجحده الجاحدون المعرضون عن طريق الله ، بسبب شهوةٍ أو شبهةٍ أو هوى نفسٍ ، أو عنادٍ وتكبر أو اجتيالٍ من شيطان ؛ ولكنهم حينما يضطرون إلى الله يلجؤون إليه ، ويدعونه ، ويتضرعون إليه بعد أن يتنازلوا عن عنادهم وعتوّهم تحت وطأة الموقف الصعب الذي يتعرضون له في البر أو البحر ، وذلك راجع إلى أن نفوسهم قد فطرت على الإيمان بالله ، والعبادة إشباع لهذه الفطرة وتلبية لهذه الحاجة ، ولكن العناد والإصرار والكفر والجحود يحول دون ذلك ، فإذا تعرض الجاحد لموقف عصيب لجأ إلى الله ، وعندها يجد نداء الفطرة متنفساً فيخرج إلى السطح معلناً الإذعان والخضوع

والاستسلام واللجوء إلى الله الواحد القهار ؛ يقول عز وجل : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾[1]، ويقول : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[2]، والآيات التي تدل على هذا المعنى كثيرة[3].

ويبين سبحانه وتعالى حاجة البشر واضطرارهم إليه بقوله عز من قائل : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[4]، وقوله : ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا

---

(١) سورة الزمر : ٨.

(٢) سورة العنكبوت : ٦٥.

(٣) انظر مثلًا سورة الزمر : ٩٤، وسورة يونس : ١٢، وسورة لقمان : ٣٢، وسورة الروم : ٣٣، وغيرها.

(٤) سورة النمل : ٦٢.

وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ . . . ﴾ الآيات[١].

والافتقار المذكور في الآيات إنما هو عام شامل للإنسان في كل أحواله؛ فهو لا يستغني عن خالقه، وهو دائم الافتقار إليه؛ وذلك أن الله هو ربهم وإلههم؛ فربوبيته لهم تتضمن تربيته لهم بالخلق والرزق والإحياء والحفظ وتيسير المصالح لهم، وما يحفظ لهم حياتهم، فهم محتاجون إليه لذلك، وهي حاجة ضرورية لأبدانهم، وألوهيته لهم تتضمن ـ كما يقول الإمام ابن القيم: «أنه الإله: الذي تألهه القلوب محبةً وإنابةً وإجلالًا وإكراماً وتعظيماً وذلًا وخضوعاً وخوفاً ورجاءً وتوكلًا»[٢]. وقبل أن نتجاوز هذا النص من كلام ابن القيم رحمه الله نود أن نتعرض لكلمتين وردتا فيه بشيءٍ يسير من التفصيل:

(١) سورة الأنعام: ٦٣، ٦٤.

(٢) محمد بن أبي بكر بن القيم، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٧هـ، ١/ ٤٣، ٤٤.

أولاهما هي لفظ: «تألهه»:

وهي مأخوذة من ألِهَ: أي عَبَدَ؛ وإلاه على وزن فِعال بمعنى مفعول فهو مألوه، أي معبود ولفظ الله وإله ـ أيضاً ـ مأخوذةٌ من ألِهَ يأله فعل بمعنى تحيَّر، وذلك أن عقول العباد تأله في عظمته، أي تتحيَّر؛ وذلك إذا وقعت قلوبهم في حب الله وتعظيمه وإجلاله وعبادته وغير ذلك من صفات الربوبيته التي يصرفها العبد إلى الله دون غيره من خلقه. وألِهَ مأخوذةٌ أصلًا من «وله» «يوله» على فلان: أي يشتد جزعه عليه، ويأله إلى الله: أي يلجأ إليه؛ لأنه سبحانه وتعالى المفزع الذي يلجأ إليه العباد في كل أمر وشان، «وتألهه» القلوب: أي تلجأ إليه وتعبده[١].

وثانيهما: لفظ «القلب»:

والقلب هو «مضغةٌ من الفؤاد معلقةٌ بالنياط»؛ كما يقول

(١) ابن منظور الأفريقي، لسان العرب ١٣/ ٤٦٧ ـ ٤٧١.

أصحاب اللغة[١]، وهو العضو الذي يستقبل الدم عبر الأوردة من أجزاء الجسم ويدفعه ثانية إلى الرئتين وإلى أجزاء الجسم عبر الشرايين، وهو لا يزال يتحرك بذلك، وإذا توقفت حركته توقفت حياة الإنسان، وهذا معروف مشهور؛ ولكن لفظ «القلب» في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لا يقتصر على مجرد هذا المعنى؛ وإنما يشمل العقل أيضاً؛ ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٢]، المقصود بالقلب هنا العقل[٣]؛ إذ العقل هو الذي يتفاوت الناس في حظوظهم منه، أما القلب بمعناه الضيق فيوجد عند سائر الناس العقلاء منهم والمجانين.

(١) المرجع السابق، ١/ ٦٨٥.

(٢) سورة ق: ٣٧.

(٣) انظر: محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت: دار الفكر ١٤٠٨هـ، م١٣، ج٢٦، ص ١٧٧. وانظر: عبدالرحمن بن الجوزي، زاد السير في علم التفسير، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٧هـ. ٨/ ٢٢.

والقلب هو الفؤاد؛ أوهو أخص منه في الاستعمال، ولكن معناه يتعدى مجرد الاقتصار على «الجارحة» الموجودة في الصدر إلى العقل والنفس أيضاً؛ ولذلك يوصف بأنه «يعي» و«يرق» و«يتقلب» و«يلين» و«ينيب» ويَسْلَمْ» ويبْيَض» و«يسْوَد»، وما إلى ذلك من الصفات التي هي في حقيقتها أحوالٌ لنفس الإنسان وعقله؛ ومن الأدلة التي تدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[2]، وقوله الرسول ﷺ في دعائه: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[3]، وقوله: «أتاكم

(١) سورة الأنعام: ١١٠.

(٢) سورة الحج: ٤٦.

(٣) رواه ابن ماجه في سننه، وصححه الألباني، انظر: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح =

أهل اليمن هم ألين قلوباً وأرق أفئدة»[١]، وقوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[٢]، وقوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٣]، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٤].

والقلوب ـ أيضاً ـ تتأثر بالمعصية كما تتأثر بالطاعة؛ يقول عزوجل: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٥]، ومن ذلك أيضاً ما جاء في الحديث عن النبي ﷺ في ذكر صلاح القلب وفساده، وأن ذلك يتعداه إلى سائر الجسد؛ حيث قال: «ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد

= سنن ابن ماجه، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٧هـ ٢/ ٣٢٥.

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح ١/ ٧٣.

(٢) سورة ق: ٣٣.

(٣) سورة الصافات: ٨٤.

(٤) سورة الشعراء: ٨٩.

(٥) سورة الأعراف: ١٠١.

كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»(١)، وفي حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»(٢).

هذه النصوص تدل على أن القلب بمعناه الشامل للنفس يترَبّى ويتعبّد ويأله ويتعلق بخالقه سبحانه وتعالى، وتربيته تكون عن طريق العبادات والطاعات التي تكون نتيجتها صلاحاً للنفس، وتطهيراً لها من الآثام، وتزكيةً لها، وترقيةً للمشاعر والعواطف، وتهذيباً للسلوك،

---

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح، المرجع السابق، ٣/ ١٢٢٠.

(٢) مسلم بن الحجاج النيسابوري، المرجع السابق، ١/ ١٢٨، ١٢٩.

وتقويةً للإرادة.

والقلب يتربّى بالعبادة؛ وذلك أنه بفطرته يميل إلى الخضوع والطاعة لله، ويميل إلى الذل والإنابة والمحبة والخوف والرجاء والإجلال لله سبحانه وتعالى. ولا يطمئن ولا يستريح بغير ذلك، فهي حاجة فطرية وافتقار طبيعي كحاجة الجسد إلى الطعام والشراب.

وعبادة الله الخالصة من الرياء والنفاق تريح الإنسان وتطمئن نفسه وتقر قلبه؛ لأنه يتحقق فيها إشباع الحاجة الفطرية لديه إلى التعبد، وهي حاجة ضرورية للقلب والنفس، وكلما تقرب الإنسان إلى الله بالعبادة ازداد اطمئناناً ورضىً وسعادةً.

وقد جمع الله سبحانه وتعالى معنى حاجة الإنسان إلى عبادته وحاجته إليه في رزقه وحياته وما يتطلبه عيشه ومصالحه في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾[1]؛ فالعبادة ـ

---

(١) سورة الفاتحة: ٤.

في «إياك نعبد» ـ تتضمن الألوهية التي بتحقيقها تكمل الحاجة القلبية والنفسية للإنسان، وإعانة الله لعبده ـ في «إياك نستعين» ـ تتضمن الربوبية التي تكمل بها حاجات الإنسان البدنية والحياتية، وقد قرن الله سبحانه وتعالى هذين المعنيين العظيمين في مواضع كثيرة من كتابه[١]؛ مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾[٢].

ولذلك خلق الله الخلق لعبادته، وأرسل الرسل لهذا الغرض؛ إذ يقول عزوجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[٣]، وقال عن مهمة الأنبياء الآخرين في دعوة أقوامهم للعبادة مثل هذا المعنى، فقد ذكر ذلك عن محمد، وموسى، وعيسى، وهود، وشعيب،

---

(١) انظر: ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ص ٤٣، ٤٤.

(٢) سورة الممتحنة: ٤.

(٣) سورة المؤمنون: ٢٣.

وإبراهيم، وغيرهم[١].

والعبادة إنما تعني الاعتراف بالألوهية وتوحيد الله بها؛ وذلك هو «رأس الأمر» والفيصل بين الإسلام والكفر، وهو شرط لأن يُعدَّ المرء في عداد المسلمين؛ وأما توحيد الربوبية فقد أقر به إبليس وأقرَّ به الكفار كما يقر به المسلمون؛ ولكنه لم يدخلهم في الإسلام؛ لأنه لم يتضمن إخلاص العبودية لله وتأليهه، وهو لا يكفي بدون الاعتراف بألوهية الله وحده وعبادته وحده، وهم لا يزالون بحاجةٍ إلى العبادة لهذا الغرض كحاجتهم إلى الطعام والشراب والصحة والسلامة التي يقرون بأنها من الله الذي خلقهم ورزقهم.

والعبادة الخالصة لله عزوجل شرط ضروري لصلاح القلب؛ وذلك أن قلب الإنسان إذا أشرك مع الله غيره

---

(١) انظر مثلًا: المائدة: ٧٢، ١١٧، الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، هود: ٥٠، ٦١، ٨٤، النحل: ٣٦، النمل: ٤٥، العنكبوت: ١٦، ٣٦، نوح: ٣.

في العبادة فسد فساداً ذريعاً، ولا يتم صلاحه إلا بأن يكفر بكل معبود غير الله، ويقصر عبادته وتوجهه إلى الله، وذلك مماثلٌ للسموات والأرض لو كان فيهما آلهةٌ غير الله فإنهما تفسدان وتنفرطان؛ كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1] ولذلك فإن القلب يتوق إلى العبادة، ويقرُّ بها، وتطمئن النفوس وتسكن بذكر الله ومعرفته، وذلك لحاجتها إلى الله وعبادته[2].

ومن ذلك يتبين أن العبادة حاجة من حاجات الإنسان الضرورية «الأساسية» والتربية السليمة إنما تحاول أن تشبع الحاجات المشروعة لدى الفرد إشباعاً سوياً. وإذا تم إشباع الحاجة إلى العبادة لدى الفرد بطريقة صحيحة فإن ذلك له مردودٌ وتأثير إيجابي يظهر في روح الإنسان

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٨، ٤٩.

وتفكيره وعقله وسلوكه .. وسنتعرض لذكر طرفٍ من ذلك بعد أن نعرض لذكر شيء من خصائص وأقسام العبادة المشروعة التي من شأنها أن تلبي هذه الحاجة الطبيعة عند الإنسان.

*****

الفصل الثاني
التربية في ضوء خصائص العبادة

تتميز العبادة في الإسلام بخصائص معينة لا تتوفر لغيرها من عبادات الملل والديانات الأخرى؛ منها أن العبادة لا تكون إلا لله، وأنها لا تكون إلا بما شرع الله، وأنها توقيفية تؤخذ عن طريق التوقيف والنص، وأنها شاملةٌ شمولًا يسع الحياة كلها، وأنها تتم بدون واسطة، فيباشرها كل فردٍ بنفسه متجهاً بها إلى خالقه مباشرةً دون وسيط، وأنها تؤدى في حدود التوسط والاعتدال، وأنها تتصف باليسر وسهوله التطبيق.

وتفصيل هذه الخصائص ليس من غرض هذه الدراسة؛ فله مواضع أخرى في كتب العبادات، والدعوة، والعقيدة، وغيرها، وما يدخل في نطاق هذا البحث هو التعرض ـ ولو بشيء يسير ـ لما تنطوي عليه هذه

الخصائص من أهمية تربوية، وما يمكن أن يتحقق من نتائج تربوية في ضوء الأداء التعبدي السليم الذي يأخذ بالحسبان أمر هذه الخصائص مأخذ الجد والالتزام، وفيما يأتي عرض لأهم هذه الخصائص، وما تنطوي عليه من أهميةٍ تربوية:

١ ـ العبادة لا تكون إلا لله:

العبادة هي الترجمة العملية للإيمان، والإيمان لابد أن يكون خالصاً لله لا يشرك معه فيه غيره، ولذلك فالعبادة لا تصرف إلا لله، وكل عمل لا يتوفر فيه هذا الشرط يصبح وبالاً على صاحبه مبعداً له عن الله، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[١]، فذكر العمل الصالح، وشرط عدم إشراك

---

(١) سورة الكهف: ١١٠.

غيره معه في العبادة، وهذا أصل عظيم في الدين تواترت الآيات والأحاديث في تقريره والتنبيه إليه؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[1]، ومن الأحاديث قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأةٍ يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[2].

ومن معرفة حقيقة أن العبادة لا تكون إلا لله[3] يتبين لنا مدى قوة ارتباط العبادة بالإيمان وأنها مبنية عليه، وأن العبادة المتصفة بذلك تعتبر أساساً قوياً لا غنى عنه بحالٍ من الأحوال للتربية الصحيحة؛ إذ أن العبادة تتعلق

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٥.

(٢) متفق عليه، صحيح مسلم ٣/ ١٥١٥، صحيح البخاري، ٧/ ٢٣١.

(٣) انظر: ابن تيمية، العبودية ص ٧٤، ١٣٦، ١٣٧.

بالسلوك والتصرفات المحكومة بالأوامر والنواهي التعبدية، كما أنها تتعلق بالاعتقاد والفكر المحكوم بالإيمان بالله رباً لا شريك له، وكلا الأمرين الاعتقاد ـ أو الفكر ـ والسلوك العملي مجال للتربية، ولا يتصور أبداً وجود تربية تمارس دورها في صياغة الحياة دون أن تتعرض لهذين الأمرين؛ بل إنه حتى المناهج التربوية المنحرفة إنما تقوم في ممارسة دورها على عقائد معينة؛ وإن كانت منحرفة، وعلى عبادات محددة؛ وإن كانت ضالة، ولا يمكن لتربية أن تمارس دورها في معزلٍ عن العقيدة والعبادة؛ لأن هذا مجال يندفع الإنسان بفطرته إلى الخوض فيه، وبحسب ما يقدمه له المنهج التربوي سيكون إشباعه لهذه الفطرة، لكن المناهج التربوية المنحرفة إنما تقدم له غذاءً فاسداً يضره ويضله، وقد يكون هذا الغذاء إلحاداً أو شركاً اعتقادياً أو عملياً أو طقوساً تعبديةً منحرفةً لا تشفي غلةً ولا تروي ظمأً، فلا يتحقق للإنسان التلبية

الصحيحة لفطرته، وهي التلبية التي لا توجد إلا في دين الله، وتقدم من خلال المنهج التربوي الإسلامي فقط، ومضمونها عبادة الله وحده لا شريك له؛ ولذلك يظل الإنسان ـ بدون هذه التلبية ـ في إحساسٍ دائمٍ بالفاقة النفسية الملحة إلى شيءٍ يملأ به نفسه، ويظل في قلقٍ وحيرةٍ واضطرابٍ نفسي، ولا يجد الطمأنينة والراحة النفسية حتى يلبي هذا الجانب أو هذه الفاقة في نفسه عن طريق التلبية الصحيحة المتمثلة في دين الله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان، وسوّى نفسه، وهو أعلم بما تحتاج إليه، وما تصلح به، وما يلبي حاجتها فعلًا؛ وهو: الاعتقاد السليم والعبادة الصحيحة التي لا تكون إلا لله.

٢ـ لا يعبد الله إلا بما شرع:

وهذا مبدأ آخر من مبادىء العبودية الحقة لله تعالى؛ فالله هو المعبود، وهو الذي يشرّع للعباد ما يتعبدهم به،

وما يكلفهم بأدائه؛ إذ هو الذي خلقهم، وهذا الحق له وحده دون سواه لا يشاركه فيه أحد من خلقه كائناً من كان؛ فمن أراد أن يعبد الله حقاً فليعبده وفق المنهج الذي شرعه الله لذلك، لا يزيد ولا ينقص، ولا يخترع أو يبتكر أنواعاً من العبادات لم يرد بها الدليل القرآني أو النبوي قولياً كان أو فعلياً أو تقريرياً[١]، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد»[٢]، وفي روايةٍ لمسلم وأحمد: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[٣].

وقد جاءت تفاصيل العبادات كلها في القرآن والسنة، ومات رسول الله ﷺ بعد أن تركنا على «المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك» كما جاء في

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٤، ١٣٦، ١٣٧.

(٢) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح ٣/ ١٦٧.

(٣) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح ٣/ ١٣٤٤.

الحديث[١]، وذلك كله يبين أننا لسنا بحاجةٍ إلى ابتكار عباداتٍ جديدةٍ مهما كانت نيتنا صالحة في ذلك؛ إذ أن ذلك تشريع، وليس لنا من أمر التشريع شيء؛ فالمشرِّع هو الله، وإنما لابد لنا من البحث عن الدليل في كل عبادة؛ سواءً كانت كلية أو جزئية، وذلك هو المنهج الصحيح، وما عداه هو الضلال، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٢].

والتقيد بما شرع الله في مجال العبادة أصلٌ هامٌ جداً يتوقف عليه صحة العبادة وقبولها وصلاح المرء وسلامة إيمانه وعمله وجماع أمره[٣].

ومع أهمية عبادة الله بما شرع فقط، وأهمية الدقة في

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه، وصححه الألباني، انظر: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن ابن ماجه ١/ ١٤.

(٢) سورة الحشر: ٧.

(٣) ابن تيمية، العبودية ص ١٧٠ ـ ١٧٤.

ذلك بالنسبة للحياة الأخرى في قبول العمل ورضى الله سبحانه وتعالى، فإنه هام للحياة الدنيا أيضاً؛ إذ أن العبادة حسب تشريع الله ومنهجه لها فوائد وآثار تربوية؛ منها أن في ذلك صدق التلقي، والدقة في الاتباع، وهذا من كمال العبودية؛ كما أن فيه التذكير الدائم ـ مع كل عبادة تؤدى ـ بالإحساس بضرورة الالتزام بالمنهج، والتمسك به، وعدم الحيود عنه قيد أنملة؛ كما أن فيه حفزاً دائماً للفرد على تجديد معلوماته المتعلقة بالأداء التعبدي والتثبت منها؛ ومن آثاره التربوية كذلك تعويد الفرد على الدقة والنظام والوضوح وطلب الدليل والبرهان واستحضار المعيار الذي يقاس به السلوك من ناحية صحته أو فساده إلى غير ذلك من النتائج الإيجابية.

٣ ـ العبادة توقيفية:

توصف العبادة في الإسلام بأنها «توقيفية» والمقصود بذلك أنها تتوقف على النص والدليل وتقف عنده لا تتعداه

فلا مجال فيها للزيادة والنقص، وهذه الكلمة مأخوذة من وَقَفَ توقيفاً إذا أطلع أحدٌ أحداً على كلمة ووقفه عليها، أي سأله الوقوف عندها، ومنه قول واقفته على كذا مواقفة أو استوقفته، والتوقيف كالنص كما يقول أهل الاختصاص(١).

وعبادة الله مضبوطة بالدليل الشرعي الذي يحدد كيفيتها وكميتها وشروطها وحدودها وأوقاتها، ومقاديرها، وما إلى ذلك.

وعبادة الله تقوم على التسليم لأوامره ونواهيه، وهذا أصل من أصول الإيمان ومبدأ من مبادىء الاعتراف بألوهية الله، وحاكميته وربوبيته للخلق، وذلك أن الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾(٢).

وهو جل وعلا يأمر بأمر وينهى عن آخر لحكمة معينة في كلا الحالين، ونحن معنيون بالأمر ومقصودون

(١) انظر: ابن منظور الإفريقي، لسان العرب ٩/ ٣٥٩، ٣٦٠.

(٢) سورة الأنبياء: ٢٣.

بالنهي؛ فيقع علينا واجب العمل بمقتضاهما، ولا يتوقف ذلك منا على معرفتنا بالحكمة التي من أجلها أمر الله أو نهى، وإنما مرد ذلك إلى الله سبحانه وتعالى، وقد نعرف الحكمة حيناً ونجهلها أحياناً كثيرة، ومع ذلك فليس أمامنا إلا طاعة الله والسير على الطريق الذي يسره لنا وخلقنا لنسير وفق أعلامه ورسومه.

وقد يخيّل لبعض الناس ممن خلت قلوبهم من الإيمان أنه يصعب على الإنسان أن يفعل شيئاً لا يعرف جيداً الحكمة من ورائه؛ ولكن الحال يختلف عن ذلك بالنسبة للمؤمنين، إذ أنهم على يقين من أنهم خلق من خلق الله، والله يفعل ما يشاء، وهو القاهر فوق عباده، وهو الرزاق والمنعم، وهو شديد العقاب، وهم يعرفون أن القرآن كلامه، وأن محمداً ﷺ نبيه، يخبر عما يريده الله من الخلق، وهم لذلك يعظمون أوامر الله ونواهيه بالتصديق بها، ثم العزم على امتثالها، والمسارعة في ذلك، وبذل

الجهد والطاقة في تمام الامتثال، وهذا في الواقع هو الدليل الفعلي على الإيمان بمقتضى وحدانية الله وإلاهيته وربوبيته.

والتوقف عن التطبيق حتى تتبين الحكمة من وراء الأمر أو النهي إنما ينافي الانقياد لله؛ بل إنه يجعل مدار العمل على «المصلحة»؛ فإن استبانت المصلحة أقدم، وإن لم تظهر أحجم، وهو في هذا كأنما يجعل عمله وسعيه بحثاً عن المصلحة وتحصيلًا لها؛ وليس تعبداً خالصاً لله، والعبودية لله هي غاية الخلق في الوجود؛ كما ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم[١].

ومبدأ تلقي العبادة بهذا الأسلوب ـ القبول والانقياد ـ من شأنه أن يربي في الفرد الطاعة والامتثال، وروح المبادرة إلى العمل، ويقوي الإيمان بالله، وتعظيم شريعته

---

(١) انظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩١هـ، ص ٢٩٠، ٢٩١.

واحترام أوامره ونواهيه، وهذا ـ طبعاً ـ بجانب الفائدة المتمثلة في الارتفاع بالإنسان إلى مقام العبودية لله سبحانه وتعالى.

٤ ـ الاتصال بالله مباشرة دون وسيط :

تتميز العبادة في الدين الإسلامي باليسر، وتتميز بالعمق أيضاً، فالمسلم لا يحتاج لكاهن أوقسيس يدعوا له ويتوسط؛ أو يستغفر ويستشفع؛ بل إنه يتجه بقلبه وروحه وجوارحه إلى ربه تعالى مباشرة، إليه يتجه حينما يهم بالعبادة فينويها خالصة له، وإليه يتجه حينما يباشر العبادة ويبدأ العمل، وحينما يستفتح الدعاء؛ فهو يدعوه وحده لا شريك له، وهو على يقين بأنه هو وحده الذي يجيب دعاءه، وهو يسمعه، بل يعلم ما تكن نفسه وما تعلن؛ وهو القائل سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ

﴿يَرْشُدُونَ﴾[(١)]، وما دام أنه قريب يسمع ويجيب فلا حاجة إلى أحدٍ من خلقه يكون واسطة إليه، وما دام أن الإسلام كاملٌ؛ كما قال عزوجل: ﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ الآية[(٢)]، فلا حاجة إلى مشرِّع جديد، ولا حاجة إلى تشريع جديد؛ ومن ثم فلا حاجة إلى «رجال دين» يتولون أمر التشريع، وهو ليس من حقوقهم، وقد قال الله عنهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾[(٣)]، واتخاذهم إياهم أرباباً بمعنى اعترافهم بحق التشريع لهم، وطاعتهم فيما يحلون لهم أو يحرمون عليهم، وهذا ليس من حقهم؛ بل هو لله

---

(١) سورة البقرة: ١٨٦.

(٢) سورة المائدة: ٣.

(٣) سورة التوبة: ٣١.

وحده؛ وهم لم يفعلوا ذلك فحسب بل إنهم جعلوا من أنفسهم واسطة تكون بين الخلق وبين الله، وجعلوا العبادات مشروطة بمباركاتهم، ولذلك فهي لا تقام إلا في الكنائس، أما العبادة في الإسلام فقد يسرها الله من حيث الأداء؛ فهي تؤدى بدون واسطة، ومن حيث المكان فهي تقام في أي مكان؛ إذ يقول عليه الصلاة والسلام: «وجعلت لي الأرض مساجد وطهورا أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت . . . .» الحديث(١).

والمسلم حينما يتصل بالله مباشرة عن طريق العبادة فإنه بذلك يتأثر بها، إذ أنه تتاح له الفرصة أن يتعمق في الدعاء والتضرع واليقين والتذلل، وهو بذلك يتولى تربية روحه ونفسه ويصفي مشاعره، ويزكي أعماله؛ كما أن فيه القرب من الله، والاتصال به، ومناجاته، وهذا يبعث في النفس الثقة والاطمئنان، ويسكب في القلب الشعور بالأمن من

(١) أحمد بن حنبل، المسند، استانبول: دار الدعوة، ١٤٠١هـ، ٢/ ٢٢٢.

المخاوف، ويبعد عنه القلق والاضطراب؛ وهذا هو أعظم مصدر لبث الثقة في النفس؛ لأن من يدعوا الله ويلتجيء إليه، ويسلم أمره إلى الله إنما يركن إلى أعظم قوةٍ؛ ليس بعدها قوة؛ تلك هي قوة الله الفعّال لما يريد؛ الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، وهو الذي بيده خزائن السماوات والأرض ومقاليد السماوات والأرض، وبيده النفع والضر، وبيده الفضل كله والخير كله، وهو الذي خزائنه ملأى ينفق منها بالليل والنهار، ولا تنقصها النفقة؛ فأي ثقةٍ وأمانٍ تنسكب في نفس العبد حينما يركن إلى قوة الله؟! وأي قوةٍ وعزةٍ ومعنويةٍ عاليةٍ يثمرها ذلك في نفس الإنسان؟!.

٥ـ التوسط والاعتدال:

الإسلام دين التوازن في كل شيء؛ إذ يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾[١]، وللعبادة نصيبها من ذلك فإن الله أمر بعبادته، ولم يأمر بالانقطاع لها وترك الدنيا، وإنما أمر بإعطاء كل جانب منهما ـ الدنيا والآخرة ـ حقه من الاهتمام والعناية؛ فهو يقول: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾[٢].

والإسلام فرض فرائض وأوجب واجبات في العبادة لابد من القيام بها لمن يريد أن تظل صفة الإسلام ضافيةً عليه، وهي تمثل الحد الأدنى من العبادة الذي لابد من أدائه، فمن لم يلتزم بأدائه ـ على الأقل ـ فهو قد عرض نفسه لخطر الخروج من الإسلام، والدخول في الكفر يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «إن الله تعالى فرض

---

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

(٢) سورة القصص: ٧٧.

فرائض فلا تضيعوها وحَد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها»[(١)]. ويقول: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»، وفي لفظ: «ليس بين العبد والشرك إلا ترك الصلاة فإذا تركها فقد أشرك»[(٢)].

ولكن الإسلام ـ مع ذلك ـ لا يريد من أتباعه أن يترهبنوا ويتركوا الدنيا جانباً، فهذا ليس من الإسلام في شيء؛ وإنما هي الحياة بمجملها يجعلها الإنسان حياة عبادة، إذا أدى الواجبات، ولم يقارف المحرمات والمنهيات، وإذا

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد: وقال: «رواه الطبراني في الكبير... ورجاله رجال الصحيح، انظر: علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، القاهرة: دار الريان، ١٤٠٧هـ، ١/ ١٧١. وقال النووي: «حديث حسن رواه الدارقطني وغيره»، انظر: يحيى بن شرف النووي، متن الأربعين النووية، دمشق: دار القرآن الكريم، ١٩٧٦م، ص ١٠٣.

(٢) الحديثان رواهما ابن ماجه في سننه، وصححهما الألباني، انظر: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن ابن ماجه ١/ ١٧٧، ١٧٨.

طلب الرزق بنية الاستغناء عن سؤال الخلق، والإنفاق على النفس والأهل والولد، وطلب النكاح بنية إحصان نفسه وأهله والاستمتاع بالحلال رغبةً عن الحرام، وجعل تصرفاته موزونة بمعايير الشرع وحرص على الخير في كل أحواله، وهكذا.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1]، ورسولنا عليه الصلاة والسلام لم يقر الترهبن، والانقطاع عن الدنيا، وترك الطيبات من الرزق حينما عمد إلى نوع من ذلك أولئك «النفر الثلاثة من أصحابه الذين سألوا عن عبادته عليه السلام، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال

(١) سورة الأعراف: ٣٢.

آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١).

وهذا المبدأ ـ التوازن والاعتدال ـ في مجال العبادة له دور عملي بارز في تربية النفس على الاتزان والواقعية في العمل والفكر؛ فهو يجعل الفرد على شعور دائم بحدود الاهمال المفضي إلى التفريط، وحدود التشدد المفضي إلى الافراط، فيجعل عمله التعبدي، وتفكيره وأحكامه، وسلوكه وتصرفاته دائماً في الحدود الآمنة المتزنه، ويراعي «الوسطية» في سائر أموره وأحواله، وهذه ليست مجرد فكرة نظرية؛ وإنما لها طابعها العملي الظاهر على سلوك الأفراد حينما يلتزمون حدود هذا المبدأ في عباداتهم

(١) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح ٦/ ١١٦.

فيحذرون من التراخي والاهمال ومن التشدد والتنطع في آن واحد؛ فالتوسط والاعتدال في العبادة هو منهج حياة.

والعبادة بهذا تكتسب صفة الواقعية فتكون ممكنة الأداء حاضرة التأثير، وتكون بذلك مدرسة ينشأ فيها الأفراد صغاراً وكباراً؛ لأنها هي الحياة يحياها الناس وفق ما يريده الله لهم، فيتربون على طريق الحياة التعبدية تربية تسموا بهم إلى آفاقٍ أرحب وحياة أكثر صلاحاً وإنتاجاً.

٦ ـ اليسر وسهولة التطبيق:

العبادة في دين الله طاعة وشكر لله، وتأدية لحقوقه التعبدية الخالصة التي لا يعبد بها سواه، وهي امتحان للبشر يتميز بها عباد الله عن عبدة الطاغوت وعبدة الأصنام، وعبدة الشهوات والملذات الدنيوية؛ ولذلك لم يكن من طبيعتها تعنيت البشر، أو المشقة عليهم، أو إيذائهم، أو تحميلهم ما لا يطيقون. ولم يكن إيذاء النفس

أو الجسد غرضاً لها، وإنما جاءت في حدود الطاقة البشرية وفي مقدور الناس في حالاتهم العادية، ومن تضعف قدرته وتحمله عن ذلك بسبب مرض أو عذر مماثل فقد جعل الله له تيسيراً ورخصاً فوق ذلك في أداء العبادات كالصلاة، والصيام، والوضوء، وغيرها.

والتيسير مبدأ أصيل في دين الإسلام وشريعته؛ يقول عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١).

واليسر في مجال العبادات أمرٌ واضحٌ بارز تدل عليه النصوص القرآنية والنبوية الصريحة التي جاءت بالرخص، ورغبت إليها، وحببت إتيانها، وهي رخص رخَّص الله بها

(١) سورة الأعراف: ١٥٧.

لعباده رحمةً بهم؛ وهو ـ كما قال عليه الصلاة والسلام ـ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تترك معصيته» وفي لفظ: «. . . كما يكره أن تؤتى معصيته»[(١)].

ومن العبادات التي رخص الله فيها للناس «الصلاة» و«الصيام»؛ وذلك في حالات الجهاد، والسفر، والمرض، وكذلك «الوضوء» و«الغسل من الجنابة» في حالات المرض، أو البرد الشديد، أو انعدام الماء.

فالصلاة مثلًا تقصر في السفر، وتجمع العصر مع الظهر، والمغرب مع العشاء، وفي الجهاد في حال الخوف وعند التحام القتال تصلى بحسب استطاعة المصلي؛ راجلًا أو راكباً، ولا يشترط فيها ركوع أو سجود أو استقبال قبلة، وفي

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند ٢/١٠٨، ورواه أيضاً ابن خزيمة في صحيحه، انظر: أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، (تحقيق محمد مصطفى الأعظمي)، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩٥هـ، ١/ ٧٣، ٣/ ٢٥٩.

حال المرض يصليها المسلم بحسب قدرته واستطاعته بدون حرج أو عنت[١].

والصيام كذلك فيه رخصة للمسافر فله الفطر ؛ بل إن الفطر أولى لقول الرسول ﷺ : «ليس من البر الصيام في السفر»[٢].

وكذلك المجاهد يرخص له في الفطر ؛ بل إنه يلزم بذلك في حال ملاقاة العدو ؛ لأن الفطر أقوى للمجاهدين فيكون ذلك أمكن لهم من عدوهم، وقد روى أبو سعيد الخدري قال : سافرنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة ونحن صيام قال : فنزل منزلاً فقال رسول الله ﷺ : «إنكم دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم، فكانت رخصه، فمنا من صام

(١) أحمد بن تيمية، دره تعارض العقل والنقل (تحقيق محمد رشاد سالم) الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود : ١٤٠٢هـ، ٨/ ٤٧٣، ٤٧٤. وانظر : إبراهيم بن ضويان، منار السبيل في شرح الدليل، بيروت : المكتب الإسلامي، ١٣٩٢هـ، ١/ ١٣٢، ١٣٦، ٢٢١، ٢٢٢.

(٢) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح ٢/ ٧٨٦.

ومنا من أفطر، ثم نزلنا منزلاً آخر فقال: إنكم مصبحوا عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا فكانت عزمة فأفطرنا»[(١)].

وأما المريض فإن الله سبحانه وتعالى يقول بشأنه: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[(٢)]، ويقول في الآية التالية لها: «.... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ....».

وكذلك رُخص له في التيمم إذا كان الماء يضره، أو يشق عليه، وحتى إذا لم يكن مريضاً وخاف على نفسه الهلاك من البرد، أو عدم الماء[(٣)]، وليس هذا مجال استقصاء الرخص في مجال العبادات؛ وإنما الغرض

---

(١) المرجع السابق، ٢/ ٧٨٩.

(٢) سورة البقرة: ١٨٤.

(٣) انظر: إبراهيم بن ضويان، منار السبيل، مرجع سبق ذكره، ١/ ٤٥، ٤٦.

الإشارة إلى يسر الإسلام ورفع الحرج فيه عن المتعبّد لله، وإعفائه من العنت، وإزالة المشقة عنه تيسيراً له ورأفةً به.

ومبدأ اليسر ورفع الحرج عن المكلف في مجال العبادة له أهمية تربوية خاصة، وذلك أن العبادة تربية للنفس والجوارح والمشاعر والعواطف؛ ولكي تؤدي العبادة هذا الدور التربوي في حياة الإنسان فلابد أن يفسح لها الطريق إلى تأدية هذا الدور، ولا يسمح بالمشقة والعنت أن تحول دون العبادة وأداء دورها في حياة البشر؛ وإنما يحل محلها اليسر ورفع الحرج لكي يكون أداؤها سهلًا ميسوراً للأفراد والجماعات في سائر أحوالهم، وعلى قدر طاقتهم؛ فيكونون على صلة دائمة بربهم عن طريق العبادة، فتتربى بذلك نفوسهم ومشاعرهم، وتزكوا أخلاقهم، وتتطهر جوارحهم، وتصفوا سرائرهم، وتسموا عواطفهم.

٧ ــ العبادة شاملة للحياة:

يتضح من تعريف ابن تيمية رحمه الله للعبادة؛ وقد ورد

ذكره فيما سبق (انظر ص ١٥) مدى الشمول الذي تتسم به العبادة في الإسلام، فهي لا تقتصر على مجرد «طقوس معدودة» وإنما هي حياة تعبدية شاملة تتضمن الفرائض وما يتعلق بها كالصلاة والحج والصوم، كما تتضمن الأخلاق، كالأمانة والصدق، وبر الوالدين وصلة الرحم، والدعوة إلى الله، والوفاء بالعهد، والإحسان إلى الأيتام والفقراء، ويدخل فيها كذلك المعاملات التي تحكم علاقة المرء بأهله وبمجتمعه من الناس، وكذلك تحكم تعامله مع المخلوقات الأخرى كالبهائم وما إليها، وبالإضافة إلى ذلك فإن العبادة تشمل حب الله ورسوله، والخوف منه وخشيته، والشكر لنعمائه والصبر على قضائه، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وما إلى ذلك.

وبذلك يكون معنى العبادة شاملًا يسع الحياة كلها بما فيها من مشاعر واعتقادات وأعمال وعبادات ومعاملات وسلوك. وتصبح الحياة كلها موجهة وجهة تعبدية يتمّ فيها

التطبيق الفعلي بتربية الفرد والمجتمع على مبادىء وعقائد وأخلاقيات وشرائع مخصوصة؛ وبذلك تصبح العبادة أساساً تربوياً للحياة الحقّة الكريمة يتم على ضوئه صياغة الأفراد بطريقة متميزة وبأسلوب لا يجعلهم ينعزلون عن المجتمع وينقطعون لعبادتهم؛ بل إنهم يمارسون العبادة وهم في أوج تفاعلهم مع مجتمعاتهم، ومع ذلك يحافظون على صلتهم التعبدية القوية بربهم؛ وذلك أن العبادة تشمل(١):

أ ـ تنظيم علاقة الإنسان بالله :

وهي علاقة التعبد الخالص، والتذلل والخضوع، والاستعانة، وهي العلاقة بين العابد والمعبود، أي المربوب وربه، والمخلوق وخالقه، وهي الغاية التي خلق

---

(١) انظر: إصلاح إسماعيل أمين، منهج الحياة في القرآن والسنة، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٢م، ص ١٠، ٤٦، ٧٧، ١٠٩.

الله العباد لأجلها[١].

ب ـ تنظيم علاقة الفرد بنفسه:

وتنظيم هذه العلاقة يكون على أساس التكليف، فالإنسان مكلّفٌ بتكاليف معينة ومسؤول عنها، وعليه أن يربى نفسه على القيام بها، وهو ممنوعٌ من «محرمات» معينة، ومسؤوليته بصفته مكلفاً عاقلًا تلزمه بإبعاد نفسه عن هذه المحرمات، وهو إنما يأتي ما أُمر به وينتهي عما نهي عنه تعبداً لله، وهو مسؤول عن عمره ماذا عمل به، وعن بصره وسمعه وشبابه، وعن طريق العبادة يستطيع أن يفني عمره ويشغل حواسه بما يرضي الله سبحانه وتعالى؛ يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[٢]، ويقول رسوله ﷺ:

---

(١) انظر: أبو الأعلى المودودي، تذكرة دعاة الإسلام، دمشق، المكتب الإسلامي، ١٣٩٥هـ، ص ٦٥.

(٢) سورة الإسراء: ٣٦.

«لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ؛ عن عمره فيم أفناه، وعن علمه ماذا عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»(١).

ج ـ تنظيم علاقة الفرد بالناس من حوله :

وذلك يكون بحسن الخلق ومراعاة حقوق الغير، وخوف الله وخشيته في ذلك، واستحضار النية الطيبة عند كل خير يقدمه لهم، والرسول ﷺ يقول : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٢). ويقول : «الدين النصيحة ثلاث مرار قالوا : يا رسول الله لمن؟ قال : لله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم»(٣).

وفيما يختص بتنظيم علاقة الفرد بأهله ؛ فإن المرء يؤجر

---

(١) رواه الترمذي في سننه، وصححه الألباني، انظر : صحيح سنن الترمذي، الرياض : مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٨هـ، ٢/ ٢٩٠.

(٢) متفق عليه : صحيح مسلم ١/ ٦٧، صحيح البخاري، ١/ ٩.

(٣) متفق عليه : صحيح البخاري، ١/ ٢٠، صحيح مسلم ١/ ٧٤.

على الانفاق عليهم والاهتمام بشؤونهم؛ وحتى الاستمتاع بزوجته يؤجر عليه؛ كما جاء في حديث أبي ذر الذي ذكر فيه أن ناساً من الصحابة شكوا إلى رسول الله بقولهم: «يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم» فأرشدهم عليه الصلاة والسلام إلى ما يفعلون؛ فيتوصلون إلى الأجر عن طريقه، وفيه قال لهم: «وفي بضع أحدكم صدقه» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[1].

وبشأن تنظيم علاقة الولد بوالديه يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح ٢/ ٦٩٧.

وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ (١).

وعن علاقة الجوار يقول رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» (٢).

والأدلة كثيرة على تنظيم الإسلام للعلاقات الإنسانية بين الأقارب والجيران والناس عموماً من ولاة أمر، ومعلمين، وذوي رحم، وغيرهم، ولا يتسع المجال لبسط ذلك كله، وحسبنا أن نقول بأن المسلم إنما يهتدي بهذه التوجيهات في تعامله مع الغير تعبداً لله سبحانه وتعالى.

د ـ تنظيم علاقة الفرد بالحياة:

الإنسان مستخلف في هذه الحياة، فهو خليفة في الأرض؛ كما قال عزوجل مخاطباً ملائكته: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا

---

(١) سورة الإسراء: ٢٣، ٢٤.

(٢) المرجع السابق، ١/ ٦٨.

من يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1].

وخلافة الإنسان في الأرض وعمارتها بحق إنما تكون وفق مقتضيات العبودية الخالصة لله تعالى، والله أوجد البشر، وأوجد لهم منهجاً يسيرون عليه في حياتهم عن طريق تحقيق العبودية لله في أنفسهم، وفي تعاملهم مع الكون، وما فيه من طاقات، وموارد، ونعم سخرها الله لهم، وأمدهم في مقابل ذلك بطاقاتٍ ومواهب ذهنية وبدنية لكي يستثمروها في التعامل مع الطاقات والموارد المسخرة لهم في الكون، ويكون هذا الاستثمار وفق منهج الله؛ فتتحقق بذلك عمارة الأرض واستثمار طاقاتها ومواردها بتوجيهها وجهةً صالحةً ترضي الله سبحانه ويتحقق بها شكر المنعم على ما أنعم به، مع عدم الخروج

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.

عن هذا المنهج ؛ أو الركون إلى متاع الدنيا ونسيان الآخرة ؛ ويكون ذلك بالتزام منهج الاعتدال ؛ وفقاً للتوجيه الرباني الكريم : ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾[1] .

إن خاصية الشمول في العبادة تعني أن العبادة تتولى تربية الإنسان في كل هذه الجوانب التي تشملها ؛ فهي لا تقتصر على تربيته في علاقته بالله وتقوية صلته به ؛ وإنما تربي في الإنسان مشاعره وعواطفه وانفعالاته النفسية ؛ كما تربي فيه سلوكه الظاهري ونشاطه الحركي ، وخلقه الذي يتعامل به مع الناس من حوله ؛ سواءً كانوا من أفراد عائلته أصولًا أو فروعاً ، أو من جيرانه ، أو من أقاربه ، أو أفراد مجتمعه ، أو أفراد نوعه ؛ أو حتى أفراد الأنواع الأخرى من المخلوقات الأخرى ؛ طيوراً كانوا ، أو أنعاماً ، أو غيرها ؛

(١) سورة القصص : ٧٧.

وكذلك فإن العبادة تعد الفرد المسلم للحياة الجادة النشطة في تعامله مع الحياة، واستثمار ما سخره الله فيها من موارد ونعم في تحقيق «العمارة المثالية» للأرض؛ وهي العمارة التي تتحقق وفق منهج الله وشرعه، وتهتدي بهديه، وترسخ جذور الإيمان في مقابل الكفر، والخير في مقابل الشر، والفضيلة في مقابل الرذيلة، وتستهدف صلاح المجتمع الإنساني ونمائه بشكلٍ عام.

*****

الفصل الثالث

أقسام العبادة وعلاقتها بالتربية

مر بنا تعريف العبادة المتضمن لعمومها وشمولها على النحو الذي تم ذكره في خصائص العبادة في الإسلام، وذلك عند الحديث عن خاصية شمول العبادة للحياة وللنشاط الإنساني بشكل عام.

ونظراً لما تتميز به العبادة من شمول وعموم فإنه يوجد لها عدة تقسيمات أو تصنيفات، وذلك بحسب ما تتعلق به من حيث الأداء، أو الحكم، أو الأسلوب، أو ما إلى ذلك، وفيما يأتي سنتعرض لذكر طرفٍ من أقسام العبادة؛ وذلك لكي نتمكن من ذكر الأثر التربوي لكل قسم على حده:

أولاً ـ العبادة من حيث تعلقها بالخلق تنقسم إلى قسمين :

أ ـ العبادة الكونية :

وهي العبادة المتعلقة بالمخلوقات عامة، والتي لا خيار للمخلوقات في أدائها، فالله سبحانه وتعالى قد ركب فيها عبوديته، وهي عبادة شاملة للكون وما فيه. والجمادات بحكم طبيعتها لا تخرج عن مقتضى عبودية الله، والإنسان قد يعبد الله وقد يشذ عن هذه القاعدة الكونية العامة بدافع المكابرة والعناد، أو الجهل وتأثير الشيطان، أو ما عدى ذلك من الأسباب ولكنه مع ذلك يظل متعبداً لله رغماً عنه في جانب من جوانب وجوده وحياته، وهو جانب لا يتأثر بإرادته واختياره؛ فهو مثلًا لا يستطيع أن يوقف نبضات قلبه، أو حركة فكره، أو عمل الأجهزة المختلفة بداخله، والتي تتحرك متعبدة لربها وخالقها، وهي تدخل ضمن مخلوقات الله الأخرى المقصودة في قوله تعالى : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ

ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾(١) . والعبادة الكونية يندرج تحتها الخلق كلهم حتى إبليس اللعين الذي يعترف بربوبية الله له(٢) ؛ كما ورد ذلك في قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٧٩﴾(٣) .

ب ـ العبادة الشرعية :

وهي العبادة المتعلقة بالتكليف الشرعي الذي أرسل الله به الرسل وبعث به الأنبياء إلى الثقلين الجن والإنس لعبادته وتوحيده، وهي العبادة التي يؤديها المكلفون بها بكيفيات مخصوصة، وهم قادرون على تركها أو تأديتها، وفيها يتم امتحانهم؛ لأن للإرادة والاختيار دور في الأداء والترك،

(١) سورة الإسراء : ٤٤.

(٢) عبدالرحمن الدوسري، الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة، مكتبة الرشد، ١٤٠٣هـ، ص ١٠، وانظر : عبدالرحمن الألباني ص ٧٠.

(٣) سورة ص : ٧٩.

وبأداء هذا النوع من العبادة بخشوع وخضوع لله يتم للإنسان الانسجام والتناسق مع الكون المتعبد الذي يعيش بداخله، ويتم له ذلك مع أجزائه وأجهزة جسمه ويشعر بالسلام والطمأنينة تهيمن عليه لانتفاء صفة الشذوذ ـ عن خلق الله ـ عنه ولاتصافه بمسايرة نواميس الله وموافقتها في نفسه وروحه وجسمه فيعيش بذلك حياة سوية طبيعية[١].

وليس هذا هو كل ما تنطوي عليه «العبادة الشرعية» من أهمية تربوية؛ وإنما يضاف إليها أن «العبادة الشرعية» هي محور التكليف، وهي موضوع «الامتحان» الذي امتحن الله به بني آدم؛ إذ فيها تتمثل «الأمانة» التي حملها الإنسان بعد أن عرضت على السموات والأرض «فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان» كما ذكر ذلك عزوجل في كتابه الكريم[٢]، وبذلك تكون هي «المحك» الذي يعرف

(١) عبدالرحمن الدوسري ص ٧٠.

(٢) سورة الأحزاب: ٧٢.

به من تجاوز الإمتحان بنجاح ممن لم يرفع بالعبادة رأساً ولم يتجاوز امتحاناً، وهي «المعيار» الذي يعرف به مدى اجتهاد الإنسان في حمله «الأمانة» التي تحملها أو مدى تفريطه في ذلك.

وإذا كان للعبادة الشرعية هذا الشأن، فإن لها في نفس المسلم شأن آخر يرتبط بذلك، وهو إيقاظها لشعور الإنسان بمسؤوليته التعبدية تجاه ربه، وتجديدها لفكرة الابتلاء والامتحان في ذاكرته، فيظل متيقظاً دوماً بحدود مسؤوليته في كيفية صرف أوقات عمره وطاقاته البدنية والعلمية والمادية، وفيم يتم صرفها، وفي كيفية النجاة من الهلاك في الآخرة، وتفادي تحصيل النتيجة السيئة في نهاية مطاف الحياة؛ وذلك كله له مردودٌ تربوي إيجابي يتمثل في تحرز المسلم من الآثام والموبقات، وتحريه للطاعات وأعمال الخير، واستثمار حياته بما هو نافع له في الحياة وفيما بعد الممات؛ إضافةً إلى ما يمكن أن

يضيفه ذلك على سلوكه وأخلاقه وأعماله من جد وإنتاج ويقظةٍ وصلاح.

ثانياً: العبادة من حيث صحتها تنقسم إلى نوعين أيضاً:

أ ـ العبادة الشرعية «المشروعة»:

وهي العبادة الموافقة لما أمر به الشارع، وهي التي جاءت النصوص بالأمر بها وبأدائها بصفة مخصوصة لا نملك أن نغير فيها؛ أو نزيد إليها، أو ننقص منها؛ إذ أن العبادات ليست مجالًا للابتداع أو الابتكار، وإنما تؤخذ وتطبق كما جاءت صفتها بنصوص القرآن والسنة، وكما طبقها رسول الله ﷺ بدون تعديل أو حذف أو إضافة، وليس لأحد بعد رسول الله أن يجتهد لإحداث عبادة يتعبد بها حتى ولو كان يفعل ذلك بنية العبودية لله والتقرب إليه، ومن يفعل ذلك فقد تعدى حدوده وأعطى لنفسه حقاً تشريعياً لا يستحقه؛ يقول عزوجل: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا

شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ . . ﴾ [(١)]، ويقول: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [(٢)]، ويقول عزوجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [(٣)].

ب ـ العبادة البدعية:

وهي العبادة المحدثة التي وجدت نتيجة لعدم الالتزام بضابط الاتباع والرجوع إلى النصوص الشرعية في تلقي كيفية ومقدار الأداء العملي التعبدي، وهي بذلك غير مشروعة لعدم تقيدها بالشرع، وهي بدعية لكونها من ابتداع الناس ظناً منهم أنها تقربهم إلى الله؛ وهي ليست

---

(١) سورة الشورى: ٢١.

(٢) سورة الجاثية: ١٨.

(٣) سورة الأنعام: ١٥٣.

كذلك ويدخل في هذا ما يفعله من يغلو في دين الله بغير فقه؛ فيكثر من التعبد ويهمل ما عداه من جوانب الدين، مثل سلامة المعتقد، والتحرز من القول على الله بغير علم وطلب الدليل الشرعي فيما يعرض له من أمور الإيمان أو العبادة أو الحلال والحرام؛ ومن ذلك مثلًا عبادات الخوارج الذين ورد عنهم في الحديث المتفق عليه عن رسول الله ﷺ أنهم: « . . . قوم يقرأون القرآن بألسنتهم لا يعدو تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[1]، فذكر عبادتهم ولكنها لم تنفعهم إذ أنهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، وهذا شأن العبادة التي لا تتقيد بدليل شرعي؛ ومن ذلك أيضاً ما يفعله غلاة الصوفية من عبادات ما أنزل الله بها من سلطان ولا فعلها رسول الله ﷺ؛ ولا نود الاستطراد في ذكر أنواع عباداتهم المبتدعة لكثرتها، ويكفينا مثالًا واحداً وهو

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح ٢/ ٧٥٠.

ذكرهم الله بالاسم المفرد مظهراً أو مضمراً كقول: «الله . . . الله . . . . الله . . . »، أو قول: «هو . . . هو هو»؛ وهذا ـ كما يقول ابن تيمية رحمه الله ـ بدعةٌ في الشرع، إذ أن ذكر الاسم مجرداً هكذا لا يُعَدُّ كلاماً، لا إيماناً ولا كفراً، ولم ترد به النصوص، ولم يطبقه رسولنا وقدوتنا عليه الصلاة والسلام، وإنما أُمرنا أن نذكر الله بقول «لا إله إلا الله»، «الله أكبر»، «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، «سبحان الله»، وغيرها من الأذكار المشروعة التي أرشدنا إليها ديننا الحنيف(١).

نتيجة تربوية:

إن من شأن شرط «الشرعية» في العبادة أن يضمن تأدية العبادة لدورها التربوي الصحيح، فالأثر التربوي السليم لا

(١) أحمد بن تيمية، مجموعة الرسائل والمسائل، القاهرة: لجنة التراث العربي، بدون تاريخ ص ٨٢ ـ ٨٦. وانظر أيضاً: ابن تيمية، العبودية، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٦ ـ ١٦٩.

ينتج إلا من عبادة صحيحة شرعاً، وذلك أن العبادة الشرعية تكون صحيحة من حيث التوجه والنية والإخلاص والأداء؛ فهي بنية التعبد الخالص لله، وهي متوجهة إليه، وهي من حيث الأداء سائرة وفق منهجه وشرعه. وإذا تعدت العبادة حدود الشرعية وبرز فيها الجانب البدعي فإنها تتضمن من الانحراف بقدر ما يظهر فيها من الابتداع، وعبادة هذا شأنها لا يمكن أن ينتج عنها إلا صياغة تربوية منحرفة وتصورات خاطئة، وهذا النوع من الصياغة التربوية المنحرفة يوجد بوضوح عند من يتعبدون بطريقة خاطئة مخالفة للشرع.

وبناءً على ذلك فإن معرفة العبادة «المشروعة» في مقابل «البدعية» مهمٌ لنا من الناحية التربوية، وذلك حتى تكون عبادتنا وعملنا لله في الدائرة المشروعة المطلوبة، والتي من شأنها أن تحدث فينا أثراً تربوياً إيجابياً، وأما ما لا يدخل في هذه الدائرة من أنواع الأعمال أو العبادات

المبتدعة فلن يحدث فينا هذا الأثر وهذه نتيجة أولى؛ أما النتيجة الثانية فتتمثل في أنه سيحدث أثراً تربوياً سلبياً أو غير مطلوب شرعاً، ومن شأن ذلك أن يحدث انحرافاً في التربية، وهو انحراف في الفكر والسلوك والأخلاق، ومثل هذا الأثر السلبي معروفٌ ظاهرٌ في أوساط بعض المتصوفة، أهل الابتداع في العبادة فإنهم يعيشون في خيالات بعيدة عن الواقع، ويتصورون لأوليائهم ومشائخهم قدرات خارقة، ويقدسون من ليس أهلًا للتقديس من رؤسائهم، ومريدوهم يكونون على صورة مزرية من الطاعة والانقياد الأعمى الذي يصل إلى نوع من عبادة المشائخ، وهم مع ذلك يقعدون عن الكسب، ويؤثرون الخمول على النشاط، ويعذبون أنفسهم بقسرها على أنواع رديئة من الأكل والشرب واللباس، ويجعلون الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام وفريضة من فرائضه مجرد جهاد للنفس، وهذه مجرد نماذج للانحرافات

التربوية الناتجة عن التعبد المبتدع، وعلى العكس من ذلك تكون الآثار التربوية للعبادة المشروعة؛ ومنها على سبيل المثال القوة في الحق، وممارسة الجهاد بوصفه عبادة في الذروة، والضرب في الأرض ابتغاءً للرزق، والتصدي للريادة والقيادة والتوجيه والتغيير، وما إلى ذلك.

ثالثاً: العبادة من حيث حكمها تنقسم إلى قسمين هما:

أ ـ واجب:

وهو ما أمر الشارع بفعله على وجه الالزام والحتم، وهو ما يجب على المكلف القيام به ولا خيار له في ذلك، وهو يتضمن الفرائض التي لابد من القيام بها؛ مثل الصلوات الخمس استجابة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾(١)، وصيام رمضان لقوله

---

(١) سورة النساء: ١٠٣.

تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[1]، والزكاة المفروضة، وأداء الحج، وبر الوالدين، وغير ذلك من الواجبات المفروضة، والتي لا يسع المكلف القادر أن يتخلى عن أدائها، ومن تركها فإنه يعاقب على تركها.

والعبادات المفروضة هي الحد الأدنى اللازم الذي يحفظ للمرء إسلامه ويحفظ له حداً أدنى من التربية الروحية، ويجعله غير مقطوع الصلة والعلاقة بالله سبحانه وتعالى، ومن أراد الزيادة في الأجر والتعمق في الإيمان والمزيد من تربية روحه، وتصفية خواطره ونفسه وتنمية رصيد التقوى لديه، فإن المجال مفتوح له بأن يعمل من المستحبات ما يقدر عليه.

ب ـ مندوب أو «مستحب»:

والمندوب هو ما طلب الشارع فعله لا على وجه الالزام

(١) سورة البقرة: ١٨٣.

والحتم؛ وإنما ندب إلى فعله ندباً، ولا يترتب على تركه عقوبة معينة؛ وهو «المستحب» وهو «السنن الرواتب» وهو «النفل».

والمندوب من الصلاة ما سوى الفرض؛ مثل قيام الليل والسنن الرواتب وما إليها، ومن الصيام ما عدى رمضان مثل صيام أيام البيض، وستة أيامٍ من شوال، ويومي الإثنين والخميس ويوم التاسع من ذي الحجة، وهكذا، ومن الزكاة ما زاد عن الحاجة[1]، وهو العفو الذي يقول فيه تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[2].

والمندوب قد يكون من جنس الواجب؛ مثل صلاة النفل من جنس صلاة الفريضة، وصيام التطوع من جنس

(١) المرجع السابق ٥/ ٨٢. وانظر: محمد بن صالح بن عثيمين، الأصول من علم الأصول، الرياض: دار طيبة، ١٤٠٤هـ، ص ٩، ١٠. وانظر: عبدالوهاب خلاف، علم أصول الفقه، الكويت: دار القلم، ١٣٩٢هـ، ص ١٠٥، ١٠٦.

(٢) سورة البقرة: ٢١٩.

صيام الفرض، وقد يكون من غير جنسه مثل السواك، وأخذ الزينة للصلاة، وذكر الله بذكر مخصوص عند الدخول إلى المسجد، أو عند الخروج منه، وهكذا.

وهذه المندوبات وغيرها إنما هي مقدمات للواجب، أو مذكرةٌ به، فهي خادمة له، وهي مكملة لنقصه، متممة له؛ ولذلك فهي من مكملات العبودية الحقة لله سبحانه وتعالى[١].

علاقة ذلك بالتربية:

العبادات الواجبة تمثل «الحد الأدنى» اللازم لتحقيق العبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى، وبتحقيق هذا «الحد الأدنى» يحصل الفرد على «حدٍ أدنى» لابد منه من التربية المنوطة بالعبادة، والتي لابد لقدرٍ منها حتى تصبح تربية

---

(١) أبي إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، بيروت: دار المعرفة ١٣٩٥هـ، ١/ ١٥١.

الأفراد تربيةً متوازنةً بين المادية والروحية؛ فالعبادات الواجبة تمد الإنسان بقدر ضروري من تربية روحه وجسمه وجوارحه ونفسه . . . ولو لم يقم بالعبادات الواجبة لا نحرم من هذا القدر ولأصبحت تربيته مادية دنيوية بحته، وهذا له أثره السيء في الفكر والسلوك والخلق والحياة بشكل عام.

وهي مع ذلك تربّي الفرد على الانتظام في حياة مبرمجة - إن صح التعبير - عن طريق الالتزام بمواعيد محددة ودقيقة لأداء العبادات المتنوعة؛ كالصلوات الخمس، وصلاة الجمعة والعيدين، وصيام رمضان، والزكاة في تمام الحول على النصاب، وصدقة الفطر والحج . . . . الخ، وفي ذلك تعويدٌ على التقيد بالمواعيد، وعلى «انتشال» النفس من واقع رغباتها وأهوائها لأداء الواجب التعبدي الذي لابد منه، وهذا بدوره تمرين عملي للنفس على قوة الإرادة وصدق العزم، وسرعة الاستجابة

والمبادرة إلى الأعمال الطيبة .

والعبادات المندوبة أو المستحبة تمثل رصيداً لا ينضب لمن أراد أن يتقرب إلى ربه بما يستطيع منها ، وهو بذلك يرتقي في تربية نفسه بحسب القدر الذي يقوم به من العبادات المستحبة ، فهي باب مفتوح للطموح إلى الخير والعمل الصالح والبر والفضيلة .

رابعاً : العبادة من حيث تأديتها والقيام بها تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

أ ـ العبادات القلبية :

وهي العبادات التي يقوم القلب بتأديتها ؛ مثل النية في العبادة ، والإخلاص في العمل والتوكل ، والإنابة ، والصبر ، والمحبة ، والخشية ، والخوف ، والرجاء ، والتصديق الجازم ، واليقين ، وما إلى ذلك من أعمال قلبية ، وقد وردت النصوص الدالة على وجوب هذه

العبادات؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[(١)]، وقوله: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾[(٣)]، وقوله: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾[(٥)].

وهذه من أعمال القلوب الواجبة، وهناك من أعمال القلوب ما منه ما هو واجب ومنه ما هو مستحب؛ وذلك مثل الرضا بقضاء الله تعالى.

ويقابل هذه العبادات معاصي قلبيه منها:

الكبائر، مثل النفاق، والرياء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، وغيرها.

(١) سورة البينة: ٥.

(٢) سورة الزمر: ٥٤.

(٣) سورة البقرة: ١٥٠.

(٤) سورة البقرة: ٤٠.

(٥) سورة المائدة: ٢٣.

ومنها صغائر مثل اشتهاء المحرمات وتمنيها.

ويشبّه ابن القيم رحمه الله القلب من الأعضاء بمنزلة الملك من الرعية، وعليه واجبات وعليهم واجبات، ولابد له أن يكون قدوة لرعيته، فإما أن يقتدوا به في عبودية الله، وإما أن يقتدوا به في معصية الله، ومن أهمل العبادات القلبية يكون كمن أسقط التكاليف عن الملك وانتظر من الرعية التفاني في العمل والإنتاج[1].

ب ـ عبادات اللسان:

وهي العبادات التي تعتمد على النطق؛ ومن واجبات اللسان التعبدية النطق بالشهادتين وقراءة القرآن اللازم للصلاة مثلًا، ورد السلام، وقول الأذكار الواجبة في الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأداء الشهادة أو الصدق في القول، وإرشاد الضال، وتعليم

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٢هـ، ١/ ١٠٩ـ١١٤.

الجاهل، ويستحب له ما زاد عن ذلك من تلاوة القرآن، وذكر الله، وتعلم العلم، ويحرم عليه قول الزور، والكذب، والقذف، والغيبة، وسب المسلمين، ونحوها، ويكره له التلفظ بما تركه أولى من قوله مما لا فائدة فيه[١].

ج ـ عبادات الجوارح :

وهي العبادات التي تتم تأديتها عن طريق الجوارح، وقد قسمها ابن القيم رحمه الله على الحواس الخمس (السمع، النظر، الذوق، الشم، اللمس)، واليد التي تبطش، والرجل التي تمشي، وقد ذكر أمثلة كثيرة للواجب والمستحب لكل جارحة، كما ذكر أمثلة لما يحرم عليها عمله، وما يكره لها فعله، وما يباح[٢].

---

(١) المرجع السابق، ص ١/ ١١٤، ١١٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١/ ١١٦ ـ ١٢٢.

والعبادات الكبرى مثل الصلاة والصوم والحج أو غيرها إنما تؤديها الأعضاء مجتمعة فالقلب واللسان والجوارح تشترك في أداء هذه العبادات، فالصلاة مثلًا فيها النية والخشوع وهي «قلبية»، وفيها القراءة والذكر وهي «لسانية»، وفيها حركات السجود والركوع والقيام وتقوم بها الجوارح.

الأثر التربوي:

توزيع العبادة بحسب الأعضاء التي تؤديها ذو أهمية خاصة من الناحية التربوية، وأهميته تتمثل فيما يأتي:

أولًا: أن العبادة موزعة على «أجزاء» الإنسان الثلاثة؛ «القلب» و«اللسان» و«الجوارح»؛ وذلك حتى تتوزع التربية على هذه الأجزاء كلها، ولا تقتصر على جزء دون آخر.

ثانياً: أن كل جزء من هذه الأجزاء الثلاثة قابلٌ للتربية سلباً أو إيجاباً، والعبادة إنما توزعت على هذه الأجزاء لكي تعطي كل جزءٍ منها ما يستحقه من التربية الإيجابية

النافعة، وبيان ذلك على النحو الآتي:

١ـ القلب ـ مثلًا ـ بمعناه الشامل للنفس تربيةً العبادات القلبية، وهي ذات أثر جليل في إصلاحه، وبصلاحه يصلح الفرد، وقد تواترت النصوص في ذكر أثر العبادة في صلاح القلب وأثر المعصية في فساده، وقد أوردنا طرفاً من هذه الأدلة فيما مضى عند الحديث عن حاجة الإنسان للعبادة (انظر ص٢٧ ـ ٢٨).

والعبادات القلبية إنما هي بديل صالح مصلح للقلب يحل محل المعصية التي من شأنها إفساده ومن ثم إفساد صاحبه.

٣ـ أما اللسان فإنه يتربى كذلك بعبادات مخصوصة يقوم بتأديتها؛ وهو قابل لأن يكون «مؤدباً» «متربياً» «ذاكراً» «ناصحاً»، وقابلٌ لأن يكون «سليطاً» «فاحشاً» «بذيئاً» «مغتاباً» «نماماً» «لعاناً»، وهكذا. وهو ذو خطر عظيم على الإنسان؛ فقد يدخله الجنة، وقد يورده المهالك، ومن المشتهر عند الناس أن اللسان قد يتسبب في قطع الرأس

الذي يحمله إذا تعرض لأحد الملوك بالسب مثلًا، ولكن أمره عند ملك الملوك سبحانه وتعالى أخطر من ذلك؛ فالرسول ﷺ يقول: «إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عزوجل له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عزوجل عليه به سخطه إلى يوم يلقاه»[١]، ويقول راداً على معاذ رضي الله عنه حينما سأله بقوله: «. . . يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم ـ أو قال: على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم»[٢]؛ فإذا كان هذا هو خطر

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني، انظر: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٣٥٨.

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني، انظر: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن الترمذي ٢/ ٣٢٩.

شأن اللسان، وإذا كان قابلًا لأن يتربى فلابد أن ينال قسطاً من التربية يتولى إصلاحه، وتربيته إنما تكون عن طريق «العبادات اللسانية»؛ وتتم هذه التربية على خطوتين:

الأولى: من باب التخلية؛ أي التخلية بينه وبين ما يضره ويفسده، ويتمثل ذلك في تحريم نوع من القول يفسد اللسان وصاحبه؛ وهو ما يكون من قبيل قول الزور والكذب، والنميمة، والغيبة، والقذف، والسخرية، والسب، واللعن، والإشراك في القول، وما هو في حكم ذلك.

الثانية: من باب التحلية؛ أي تحليته بما يصلحه وينفعه بإذن الله؛ ويتمثل ذلك في إعطاء البديل الصالح من القول الطيب الذي يتولى تربية اللسان تربية إيجابية، وعلى رأس ذلك القرآن الكريم الذي يتحرك به لسان المرء متقرباً إلى الله به؛ فيقتبس منه هدىً ونور ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[1]، ثم

(١) سورة الإسراء: ٩.

ذكر الله، والدعاء، وأدعية الصلوات، والنصيحة، والعلم الشرعي، والدعوة إلى الله، وصدق القول، وما إلى ذلك.

وليس هذا مجال سرد الأحاديث النبوية التي تبين فضل الذكر والدعاء والقول الطيب، ولكن حسبنا أن نذكر حديثاً واحداً قوي الصلة بما نحن بصدد الحديث عنه، وهو أثر العبادة في تربية اللسان؛ ذلكم هو حديث أبي هريرة رضي الله عنه، روى أن رسول الله ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه» وقال: «من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»(١).

---

(١) انظر: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الكلم الطيب، المكتب =

ولو لم يكن من النتائج التربوية لهذا الذكر إلا أنه يكون حرزاً للذاكر من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي لكان ذلك خيراً كثيراً، وذلك أن الشيطان هو الذي يغري بالمعصية ويثبط عن الطاعة، وإذا أمن المرء إغراءه بأن كان في حرز منه بسبب هذا الذكر الطيب فإنه يكون قد انسد أمامه باب من أبواب التردي الخلقي والسلوكي بشكل عام، وهذه نتيجة تربوية باهرة، يضاف إليها أن اللسان نفسه الذي نطق بالذكر سيكون في حرزٍ مما يوسوس به الشيطان من كلام سيء يعتبر من قبيل المعاصي «اللسانية»، فإذا داوم الفرد على هذا الذكر دام في حرز من الشيطان ودام في تربية للسانه ونفسه.

٣ـ الجوارح ـ أيضاً ـ تتربّى بالعبادة؛ وذلك أن صاحبها مسؤول عنها، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ

= الإسلامي، ١٣٩٤هـ، ص ١٠، ١١.

أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾﴾[١].

وهي تعمل الطاعة والمعصية، وتتأثر بكل منهما؛ فتتربى به خيراً أو شراً؛ يقول عزوجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾[٢]، فالجلود تقشعر وتلين عند سماع القرآن، وهي جلود المؤمنين، والجوارح كذلك، والرسول ﷺ يقول: «كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطى، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدّق ذلك الفرج ويكذبه»[٣].

---

(١) سورة الإسراء: ٣٦.

(٢) سورة الزمر: ٢٣.

(٣) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح ٤/ ٢٠٤٧.

وبناءً على ذلك فإن العين تزني وزناها النظر إلى المحرمات، وطاعتها تكون بالغض عن المحرمات، والنظر في القرآن وكتب العلم وما هو مباح، وكذلك السمع يستعمله الإنسان في سماع المحرمات، ويمكن أن يستبدل بها ما هو خير منها أو ما هو مباح، والرجل تمشي بصاحبها إلى المعصية وأماكنها، وتمشي به إلى دور العبادة، واليد تستعمل في العدل والخير، وفي الظلم والشر كذلك.

لذا فقد حرَّم الله على الجوارح تنفيذ المحرمات والآثام، وأبدلها بذلك عبادة تقوم بها؛ فتزكوا وتتربى وتتعود على فعل الخير في هذه الحياة، وتلقى جزاءً ذلك في الدار الآخرة فضلًا من الله ورحمة؛ يقول الرسول ﷺ: «عينان لا تمسّهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله»[1].

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني، انظر: محمد ناصر الدين الألباني، =

وسيأتي مزيد بيانٍ لأثر العبادة على الجوارح والأعضاء عند الحديث عن العبادة وتربية الجسم.

****

= صحيح سنن الترمذي ٢/ ١٢٧.

(١) سورة الإسراء: ٨٥.

الفصل الرابع
الوظائف التربوية للعبادة

بعد أن تعرضنا لمعنى العبادة الشامل، وحاجة الإنسان إليها، وما تختص به العبادة الإسلامية من خصائص هامة، وبعد أن ذكرنا التقسيمات والتصنيفات التي تندرج تحتها أنواع العبادة، مع ذكر طرفٍ من أهمية ذلك من الناحية التربوية نعرض فيما يأتي إن شاء الله للوظائف التربوية للعبادة ممثلةً فيما تفعله العبادة في الروح والعقل والجسم، وما تحدثه من آثار تربوية إيجابية في الفرد، وفي الحياة الاجتماعية بشكل عام.

والحديث عن الوظائف التربوية للعبادة في هذا السياق أمر لابد منه في مثل هذا البحث؛ إذ أن موضوعه هو دور العبادة في التربية، وحيث أنه تمّ التأكيد ـ فيما مضى ـ على

ضرورة اعتبار العبادة أساسٌ من الأسس التربوية؛ مع ذكر ما يدعوا لذلك من مسوغاتٍ حقيقية، فلابد من ذكر بعض النتائج التربوية التي يمكن أن نحققها في حالة اعتمادنا على العبادة بصفتها أساسٌ من الأسس التربوية الهامة، وبمعنىً آخر في حالة اعتبارنا للعبادة بصفتها إحدى الدعائم التي تقوم عليها التربية، وفيما يلي عرضٌ لأهم الوظائف التربوية للعبادة.

أ ـ العبادة والتربية الروحية:

تطلق الروح ويقصد بها ـ في المصطلح الإسلامي ـ عدة معانٍ؛ منها أن الروح هو «ما به حياة النفس»، وقد استأثر الله بعلمه دون خلقه، وهو الذي لا يفارق الإنسان إلا عند الموت وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

(١) سورة الإسراء: ٨٥.

ويقصد بالروح ـ أيضاً ـ الوحي، وجبريل عليه السلام، والقرآن، والأمر[١].

ونحن لا نقصد في دراستنا هذه أيًا من هذه المعاني؛ وإنما الذي نقصده هو معنى «الروح» باعتباره مرادفاً لكلمة «النفس»، فكلمة الروح تطلق على النفس أيضاً، ولكن معنى الروح حينما يراد بها «النفس» يختلف عن معناها حينما يراد بها «سر الحياة» الذي هو عنصر حياة الكائن البشري في هذا الوجود، والذي لا نعلم عنه شيئاً وإنما مرد علمه إلى الله سبحانه وتعالى.

وحينما يراد بكلمة «الروح»، النفس فإن المقصود بها النفس الذي به التميز العقلي والوعي الذهني؛ وهو المقصود[٢] بقوله

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سبق ذكره ٢/ ٤٦٢.

(٢) انظر: عبدالرحمن بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، مرجع سبق ذكره ٧/ ١٨٦. محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، بيروت: دار الفكر، ١٤١٤هـ ٤/ ٦٦٢.

تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾[١].

وفي هذه الآية يذكر سبحانه وتعالى وفاتين للإنسان:

الأولى: «الوفاة الكبرى» التي بحدوثها تخرج الروح من الجسد، وينتقل الإنسان بذلك من عالم الأحياء إلى عالم الأموات.

الثانية: «الوفاة الصغرى» التي تحدث عند النوم، وذلك بأن تفارق النفس صاحبها ومع ذلك لا يموت، ثم تعود إليه عند اليقظة، وذلك في حالة امتداد الأجل؛ أما في حالة انقضائه فإن روحه تقبض في نومه أو يقظته[٢].

وهذه الوفاة «الصغرى»؛ أي النوم هي التي ذكرها عز وجل في

(١) سورة الزمر: ٤٢.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، لم يذكر تاريخ النشر، ٤/ ٥٥.

قوله : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾(١)، ثم ذكر سبحانه وتعالى الوفاة «الكبرى»؛ أي الموت في الآية التالية لها بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾(٢).

ومع ذلك فإن «النفس» تأتي أحياناً بمعنى الروح الذي هو «سر الحياة وعنصر وجود الإنسان»، وهذا هو ما يفهم من الدعاء الذي أرشد النبي ﷺ إلى قوله عند النوم وهو دعاء النوم: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، فإن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»، وفي دعاء الاستيقاظ جاء استعمال لفظ «الروح» بدلًا من النفس فدلالتهما واحدة في هذين

---

(١) سورة الأنعام: ٦٠.

(٢) سورة الأنعام: ٦١، وانظر المرجع السابق، ٢/ ١٣٨.

الدعائين: «فإذا استيقظ أحدكم فليقل: الحمد لله الذي عافاني في جسدي وردّ علي روحي وأذن لي بذكره»[1].

ومن ذلك نفهم أن كلمتي الروح والنفس مترادفتان في الدلالة على عنصر الحياة، والذي بخروجه من الجسد ينتقل الإنسان إلى عالم الأموات؛ وهما مترادفتان أيضاً في الدلالة على معنى «نفس التمييز» المتعلقة بالوعي والمشاعر والانفعالات والعواطف وما يتعلق بذلك.

ونفس التمييز هذه هي التي عن طريقها يؤدي المرء عباداته وأعماله بوعي منه ويقظة وحضور ذهن؛ وهذا المعنى هو ما نعنيه حينما نتحدث عن التربية الروحية عن طريق العبادة مضافاً إليه ما يفهم من استعمال كلمة الروح بمعنى «التدين عند الإنسان أو مدى الصلة التي تربط الإنسان بربه؛ إذ يقر له بالعبودية ويبادر الامتثال والخضوع

---

(١) محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الكلم الطيب، مرجع سبق ذكره ص ٢١، ٢٢.

لأمره وسلطانه فيتدلى ذلك في سلوكه وممارساته وملامحه الظاهره»[١].

وتربية الروح إنما تتم عن طريق إشباع حاجتها الفطرية إلى الإيمان بالله وتوحيده وعبادته، والروح الإنسانية قد فطرت على معرفة الله؛ فهي تعرفه بوحدانيته، وتربيتها إنما تتم عن طريق تجديد صلتها بخالقها، ووصلها به دائماً وأبداً، والعبادة لها دورٌ مؤثرٌ جداً في ذلك؛ إذ أن العبادة هي صلة العبد بربه وخالقه ورازقه ومعبوده، فعن طريق هذه الصلة يزداد رصيد التقوى لديه، ويتجدد خوف الله عنده، ويعظم رجاؤه فيه؛ فيكون في ذلك يقظةً له وشعوراً بالكائنات من حوله، فإذا زاد تأمله فيها زاد إيمانه بالله الذي أبدعها والإنسان لا يدوم على حال؛ فهو متقلبٌ من الضعف إلى القوة ومن القوة إلى الضعف، والعبادات ما

(١) أمير عبدالعزيز، الإنسان في الإسلام، عمان: دار الفرقان، وبيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـ، ص ٤٩.

هي إلا محطات يتزود بها وقوداً للطريق، يتزود بها يقيناً وخشيةً وإيماناً وتضرعاً وخضوعاً لله وتعبداً له؛ فيكون ذلك معيناً له على نفسه وحاله فيظل دائماً في ارتفاع وتربية وتجدد.

والإسلام يحرص على تجديد هذه القوة في الروح عن طريق العبادات المتنوعة، والقرآن «دستور الإسلام» ـ وقراءته وتدبره عباده ـ دائماً يفتح آفاق الذهن البشري على ما يمكن أن يزيد وعيه بما حوله من آيات الله في الأنفس والآفاق والنبات والحيوان، وفي ذلك تربية لروحه، ومن ذلك مثلًا قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ . . . الآيات[1]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨﴾ الآيات[2].

(١) سورة الطارق: ٥ ـ ٧.

(٢) سورة الغاشية: ١٧ ـ ١٨.

وكذلك يوجه القرآن ذهن الإنسان إلى قدرة الله وهيمنته على الخلق في مثل قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾[1]. وغيرها كثير.

وكذلك يوجهه إلى ملاحظة علم الله الشامل لحركاته وسكناته؛ في مثل قوله عزوجل: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾[2].

وهذه التوجيهات المتكررة التي يعبد الإنسان ربه بقراءتها وتدبرها من شأنها أن تجعله مترقباً خائفاً راجياً لله سبحانه وتعالى، وبهذه الصفات يرتفع إلى مصاف المؤمنين بالله حقاً الذين وصفهم بقوله: «. . . وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . .»[3].

---

(١) سورة مريم: ٣٥.

(٢) سورة غافر: ١٩.

(٣) سورة الحج: ٣٤، ٣٥. وانظر: محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، الطبعة الثانية، بيروت: دار الشروق، لم يذكر تاريخ النشر، ص ٣٩ ـ ٦٧.

والإيمان ـ بمعنى التصديق والإقرار ـ وحده لا يكفي لتربية الروح تربية حقيقية؛ وإنما لابد أن يكون مصحوباً بالعمل؛ والعمل إنما يتمثل بالعبادة، وعن طريقها تتربى الروح فتصفوا النفوس، وترق القلوب، وتوجد الحساسية في قلب الإنسان إزاء ما يعترضه من مواقف أو ما يضطر إليه من تصرفات؛ فيصبح لديه معيارٌ أو ميزانٌ قويمٌ يزن به الأعمال والأقوال والتصرفات والمواقف وأنواع السلوك؛ فلا يعمل إلا ما يرضي الله ويقربه إليه ويبتعد أشد البعد عما يكون يعكس ذلك، والرسول ﷺ يقول فيما يرويه عن ربه عزوجل في الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: إن الله قال: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها،

وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»[١].

وعن طريق العبادة يتربى في الإنسان الضمير الحي اليقظ الذي يكون له دورٌ في توجيه سلوك صاحبه؛ فإذا حاد عن الطريق أو قصّر وقف ضميره مؤنباً له حتى يثوب إلى الحق أو يتغلب على التقصير، وعلى قدر الانحراف أو التقصير يكون مستوى التانيب، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[٢]، والنفس اللوامة ـ كما يرى بعض العلماء مثل الحسن البصري ـ هي نفس المؤمن المتوجسة الخائفة التي تلوم صاحبها على ما يفعل، بعكس نفس الفاجر التي لا تلوم

(١) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، مرجع سبق ذكره ٧/ ١٩٠.

(٢) سورة القيامة: ١، ٢.

صاحبها وتتركه يمضي قدماً لا يفكر فيم فعل من خير أو شر[١].

ويقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾[٢]، وهم يستغفرون الله فيغفر لهم ذنوبهم، فتظل نفوسهم على حالها من الصفاء وتظل ضمائرهم يقظةً حيةً، وتبقى قلوبهم ناصعةً لا تسودها المعصية؛ يقول عزوجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٣]، وهذه الحال إنما توجد عند من تربّى بالعبادة؛ وأما من يعيش لنفسه ولذائذه ودنياه غير عابىء بالقيام بما عليه من واجبات تعبدية فإنما يكون ضميره خامداً لا تأثير له؛ بل

---

(١) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، بيروت: دار الشروق، ١٣٩٣هـ، ٦/٣٧٦٨.

(٢) سورة آل عمران: ١٣٥.

(٣) سورة النساء: ١١٠.

إن هوى نفسه يسيطر عليه ويسلك به سبل الغواية والفساد، ولا يجد في ذلك تأنيباً من ضمير، أو وازعٍ من عقل إلا أن يتداركه الله برحمةٍ منه فيهديه إلى الطريق السوي؛ ويقول عزوجل في وصف هؤلاء: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[1]، ويقول في وصف النفس الإنسانية: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾[2]، وثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال في وصف أثر تكاثر الذنوب على القلب، وإماتتها له، وبلادته بسببها: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً؛ فأي قلبٍ أشربها نكت فيه نكتةً سوداء، وأي قلبٍ أنكرها نكت فيه نكتةً بيضاء حتى تصير على قلبين؛ على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز

---

(١) سورة الكهف: ٢٨.

(٢) سورة يوسف: ٥٣.

مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»[(١)]، ونجد في هذا الحديث بيان أثر الطاعة والعبادة في صفاء القلب وسلامته وحياته، واستعداده للخير، واكتسابه المناعة ضد الفتن والمغريات.

وحيث أننا قد ذكرنا «الضمير» ويقظته أو خموده، وأثر العبادة في إحياء الضمير، فقد يكون من المناسب أن نوضح ما نقصده بكلمة «الضمير» منعاً للالتباس وتوضيحاً لمدلول هذا اللفظ؛ وذلك أن معناها قديماً يختلف عما تعارف الناس عليه من استعمالها في الوقت الحاضر؛ فهي تعني في اللغة ما يضمره الإنسان؛ أي يخفيه داخل قلبه، وهي تعني فيما تعارف الناس عليه الآن «الوازع» وهي مأخودة من «الوزع»؛ أي «كف النفس عن هواها»[(٢)].

---

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح، مرجع سبق ذكره ١/ ١٢٨، ١٢٩.

(٢) ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، مرجع سبق ذكره ٤/ ٤٩١، ٤٩٣ و٨/ ٣٩٠.

ويعبر عن ذلك بعض المحدثين من علماء الأخلاق بقولهم: «الضمير هو الشعور النفسي الذي يقف من المرء موقف الرقيب؛ يحث على أداء الواجب، وينهى عن التقصير، ويحاسب بعد أداء العمل، مستريحاً للإحسان مستنكراً للإساءة»(١).

والعبادة إنما تربي هذا الشعور في النفس على أساسٍ من خوف الله وخشيته وتقواه وابتغاء رضوانه وإحسانه ورحمته.

وقد ورد التعبير عن هذا الشعور أو الإحساس في الحديث باسم «واعظ الله في قلب المسلم»؛ وذلك في قوله ﷺ: «ضرب الله مثلًا صراطاً مستقيماً وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبوابٌ مفتحةٌ، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: أيها الناس ادخلوا

(١) انظر: السيد سابق، عناصر القوة في الإسلام، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٨هـ، ص ٤٨.

الصراط جميعاً ولا تتفرجوا، وداعٍ يدعوا من جوف الصراط، فإذا أراد يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه والصراط الإسلام، والسوران حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله عزوجل، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم»[١].

ب ـ العبادة والتربية العقلية:

في التربية الإسلامية ـ كما يقرر الشيخ محمد قطب ـ لا يوجد حدودٌ فاصلة بين ما يسمى التربية الروحية والتربية العقلية والتربية الجسمية؛ وإنما هي تربية متكاملة شاملة

(١) أحمد بن حنبل، المسند، مرجع سبق ذكره، ٤/ ١٨٢، ١٨٣، ورواه أيضاً الحاكم في المستدرك، وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولا أعرف له علة، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، انظر: أبي عبدالله الحاكم النيسابوري، المستدرك، بيروت: دار الكتاب العربي، بدون تاريخ ١/ ٧٣.

للإنسان من جوانبه كلها؛ ولكن الفصل بينها ـ هنا ـ لغرض الدراسة والبحث لا أكثر ولا أقل.

والتربية العقلية في تربية الإسلام تتم بطرقٍ عديدة منها:

١ ـ الإلزام بحدٍ ضروري أدنى من العلم؛ كما في الحديث: «طلب العلم فريضةٌ على كل مسلم»[١]، وهذا الإلزام يشمل كل «مسلم» ذكراً كان أو أنثى، وهو «فرض عين» كما في نص هذا الحديث، ويشمل ذلك كما يقول الإمام النووي «تعلم المكلف ما لا يتأدى الواجب الذي تعين عليه فعله إلا به؛ ككيفية الوضوء، والصلاة، ونحوها...»[٢] فهذا الحد من العلم؛ أو من الطلب يندرج تحت قاعدة «ما لا يتم أداء الواجب إلا به فهو

(١) رواه ابن ماجه في سننه، وصححه الألباني، انظر صحيح سنن ابن ماجه، مرجع سبق ذكره ١/ ٤٤.

(٢) يحيى بن شرف النووي، آداب العالم والمتعلم (مقدمة كتاب المجموع) طنطا: مكتبة الصحابة ١٤٠٨هـ، ص ٢٣.

واجب» ؛ ويشمل ذلك المعلومات المتعلقة بأداء الفرائض الواجبة، وشروطها، ومقدماتها وصفاتها، ومواقيتها ومبطلاتها، وما إلى ذلك، كما يدخل فيه معرفة الحلال والحرام، ويشمل هذا الإلزام أيضاً العلم بالعقيدة الصحيحة ؛ كالإيمان وأركانه، والإسلام وشروطه وأركانه، والتوحيد وما يتعلق به من أسماء الله وصفاته، ورسله، وملائكته، وكتبه، وقدره، واليوم الآخر، وهذا من شأن أن يوفر قاعدةً قوية تقام عليها التربية العقلية ؛ حيث تصبح مفردات العقيدة ضوابط للتربية العقلية السليمة تضمن لها التوازن بعيداً عن الشطط والانحراف.

وهذا الحد الأدنى من العلم «فريضة» ؛ أي أنه واجب شرعي، فطلبه عبادة، والتقصير في طلبه إخلال في العبادة، وهذا يوضح طرفاً من أثر العبادة ودورها في التربية العقلية.

٢ ـ الإعلاء من شأن العلم والعلماء، والتنويه بفضلهم

وقدرهم؛ يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(١)]، مع الحث على الازدياد من العلم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[(٢)]، وذلك مع ذكر فضل طلب العلم، وترتيب الأجر عليه، واعتباره عبادة من أسمى العبادات؛ يقول الرسول ﷺ: «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورّثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظٍ وافر»[(٣)]، ويقول:

---

(١) سورة الزمر: ٩.

(٢) سورة الكهف: ١١٤.

(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني، انظر: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن الترمذي، مرجع سبق ذكره ٢/ ٣٤٢.

«فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»[١].

والعلم هو زاد التربية العقلية، فلا تربية للعقل مع الجهل، فالعلم به تتفتح الأذهان، وتتسع المدارك، وتتنور البصائر، وتتقوى الأفهام...

٣ـ الحث على التفكر والتدبر لآيات الله وآلائه، وتوجيه الفرد إلى العناية بهذا الجانب باعتباره عبادة من العبادات؛ يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[٢]، ومدح الله المؤمنين الذين يتفكرون في خلق الله على اعتبار أن ما يقومون به من ذلك عبادة؛ بل إن القرآن الكريم يصف أولي الألباب؛ أي العقول بأنهم «الذين يذكون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض»، وهو قد قرن ذكر الله

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني، انظر: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن الترمذي، المرجع السابق ٢/ ٣٤٣.

(٢) سورة محمد: ٢٤ .

بالتفكر في خلقه، وذكر التفكر في معرض مدحه لأولي الألباب؛ فهو عبادة يمدحون بها؛ كما يمدحون بذكرهم لله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، وخصوصاً أن هذا التفكر قد وظف للوصول إلى الحق والتمسك به؛ فهو لم يذهب هدراً بلا فائدة، وإنما قادهم إلى نتيجة نافعة تقصها علينا الآيات الكريمة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا

فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾[1].

وهذا يشير إلى ضابطٍ آخر من ضوابط التربية العقلية للفرد؛ وهي تربية تحصل بالتفكر في آلاء الله وتدبر آياته الكونية والقولية، وهما من العبادات التي يثاب عليها المرء المسلم، وبذلك تضمن العبادة للفرد تربية عقلية متوازنة مثمرة تقود إلى إصلاح العقائد والعبادات، والخضوع والإذعان، والإنابة والتضرع لله سبحانه وتعالى.

٤ـ توجيه العقل إلى الميادين التي له فيها مجال ينفذ من خلاله إلى استكشاف واستنباط حقائق المعرفة، مع صرفه عن مجالات أخرى لا يعود عليه البحث فيها بكبير فائدة؛ بل ربما قاده البحث فيها إلى الانتكاس والضلال، ونجد

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٥، وانظر: محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، مرجع سبق ذكره ص ٨٩ ـ ١٢٥.

مثل هذا التوجيه في مثل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى...﴾(١). وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى...﴾(٢).

وكذلك قوله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته»(٣).

وقوله: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله»(٤).

وقوله: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم

---

(١) سورة الأعراف: ١٨٧.

(٢) سورة الإسراء: ٨٥.

(٣) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح، مرجع سبق ذكره ١/ ١٢٠.

(٤) أورد الألباني له عدة طرق، وقال: «وبالجملة فالحديث بمجموع طرقه حسن عندي والله أعلم» انظر: محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، عمان: المكتبة الإسلامية ١٤٠٤هـ ٤/ ٣٩٥ـ٣٩٧.

فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا . . . »[١].

وهذا أيضاً من الضمانات التي تضبط للعقل مساره وميدانه، حتى لا يكون هناك هدرٌ للطاقة العقلية، وإضاعة لها في ميادين لا يثمر البحث فيها علماً نافعاً أو عملًا صالحاً؛ وإنما يوجه العقل إلى البحث في ميدانه ومجاله الذي يمكن أن يثمر فيه معرفةً بالحق وعملًا به؛ بالإضافة إلى ما يعود عليه هو من المران والتدريب والخبرة والتجريب؛ ومن الأمثلة على هذه الميادين ما يلي:

تدبر آيات الله القولية في كتابه الذي أنزله تبصرةً لعباده: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[٢]، ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ

---

(١) أورد الألباني له عدة طرق، وصححه، انظر: الألباني، صحيح الجامع الصحيح، دمشق: المكتب الإسلامي، ١٣٨٨هـ ١/ ٢٠٩. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، المرجع السابق ١/ ٤٢ ـ ٤٦.

(٢) سورة ص: ٢٩.

﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾[١].

توجيه النظر العقلي إلى التفكر في حكمة الله وتدبيره لهذا الكون الذي خلقه بالحق سبحانه وتعالى؛ إذ يقول: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾[٢].

ويلاحظ في هذه الآية الكريمة الارتباط بين التفكر والتدبر للكون والإيمان الذي تنطوي عليه أفئدة المؤمنين، فالآيات موجودة في الخلق، وهي واضحة للمؤمنين الذين يتدبرون خلق الله، أما غير المؤمنين فلهم شأن آخر.

التفكر في الأنفس، وما أودعها الله من أسرار خلقه وحكمه: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[٣].

التفكر في السنن والنواميس الإلاهية التي تحكم مجال

---

(١) سورة المؤمنون: ٦٨.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٤.

(٣) سورة الذاريات: ٢١.

العلاقات الإنسانية، والاجتماع البشري، والعلاقات بين الجنسين من سائر المخلوقات: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[1].

التفكر في مخلوقات الله في آفاق الكون، وما تحتويه من حكم وأسرار وإبداع في الخلق تقود ملاحظته إلى الإيمان برب الوجود: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾[2].

---

(١) سورة الروم: ٢١.

(٢) سورة النحل: ٦٦ ـ ٦٩.

توجيه العقل البشري إلى النظر في حكمة التشريع، يقول عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]، ويقول: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾[2]، وهنا نجد ارتباطاً واضحاً بين النظر في حكمة التشريع والتقوى وبين أداء الصيام بصفته عبادة والعلم، كما يلاحظ أن الخطاب في الآية موجهٌ لأولي الألباب، وفي ذلك تنويهٌ بنعمةٍ من أعظم نعم الله على عباده وهو العقل.

توجيه الذهن البشري إلى ملاحظة سنة الله في الأرض وفي الأمم السابقة، وماذا حدث لهم نتيجة كفرهم بالله، وتكذيبهم رسله، وظلمهم وإنكارهم لآيات الله، وغفلتهم عن منهجه؛ يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟

(١) سورة البقرة: ١٧٩.

(٢) سورة البقرة: ١٨٤.

ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ﴾[1]، والله يصرف الأنظار إلى تدبر حالهم لكي يحذر من الوقوع فيما وقعوا فيه، ولكي يذكر الناس بوجوب عبادة ربهم سبحانه لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه أمور تعبدية يقود إليها النظر العقلي السليم في سنن الله في الأكوان وما فيها من خلق، وهنا يوجد ارتباطٌ ظاهرٌ أيضاً بين العبادة والتفكير والتدبر في نواميس الله في خلقه؛ يقول عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾[2]، ويقول: ﴿ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة الروم: ٩.

(٢) سورة النور: ٥٥، ٦٥.

أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[1].

توجيه الإنسان إلى الاستفادة من الطاقات المادية التي في متناول يديه، ولكنه مع ذلك مأمورٌ بمراعاة خوف الله في ذلك؛ وذلك بالأكل من الطيبات من الرزق، واجتناب ما عدى ذلك تعبداً لله سبحانه وتعالى؛ إذ يقول عزوجل:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ

(١) سورة الحج: ٤٠، ٤١.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي
ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا
وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي
ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن
لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾(١).

ويتبين من ذلك كله أن التربية العقلية التي يفضي إليها التفكر والتدبر والتحصيل واستخدام الطاقات الذهنية والمواهب العقلية تستثمر في إصلاح العقائد والعبادات والأخلاق والسلوك بشكلٍ عام، ونجد الخطاب قوياً في الآيات القرآنية نحو توجيه الفرد إلى ما يثمره التفكر والتدبر

(١) سورة النحل: ١٠ ـ ١٨.

في آيات الله ومخلوقاته من الإقرار بوحدانية الله وتوحيده والحث على الاستمساك به والالتزام بما ينطوي عليه التوحيد من خلق أو سلوك، والتحرر من العوامل البيئية الصارفة عن الحق متمثلة في الموروثات الباطلة التي تتوارثها الأجيال جيلًا بعد آخر.

ج ـ العبادة وتربية الجسم :

يعنى الإسلام بتربية الجسم لا من ناحية عضلاته وأجزائه وأحشائه وأعصابه فحسب، وإنما يضيف إلى ذلك العناية الشاملة به من ناحية الأحاسيس، والدوافع الفطرية، والحاجات الطبيعية، وما إلى ذلك؛ وبمعنى آخر «الطاقة الجسمية» بشكل عام.

والعبادة لها دور في التربية الجسمية أيضاً؛ فإذا كان الإسلام يضبط طريقة إشباع الدوافع الفطرية وينظمها بدلًا من أن يتركها تأخذ لنفسها طريقاً فوضوياً، فإنه بذلك إنما

يحول طريقة إشباعها إلى عبادة؛ فإذا كان أكل أموال الناس بالباطل حراماً؛ فإن الامتناع عن هذا المال الحرام والاقتصار على ما أحله الله من كسبٍ حلال يصبح عبادة، وإذا كان الزنى حراماً فإن الامتناع عنه والاقتصار على العلاقة الزوجية الشرعية الطاهرة يعد عبادة، وإلى هذا المعنى يشير ـ بل يصرّح ـ النبي ﷺ بقوله: «وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[(١)].

وبهذا تكون العبادة ضابطةً لإشباع الحاجات الجسدية الفطرية عند الإنسان، وإشباع الدوافع الفطرية بهذا الأسلوب يعتبر إطلاقاً لطاقات الجسم المكبوتة وتوجيهاً لها إلى الطريق الصحيح الذي شرعه الله سبحانه وتعالى،

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح، مرجع سبق ذكره ٢/ ٦٩٧.

وهو في الوقت نفسه ذو أثر تربوي نفسي يعود على النفس بالراحة والانطلاق المتوازن السوي، والسبب في ذلك أن هذه الدوافع تتعلق بالنفس كما تتعلق بالجسد؛ بل إن الجسد هو «أداة التنفيذ» للرغبات النفسية التي تمليها النفس أو تتمناها وتتوق إليها، وهذه الرغبات النفسية تظهر جلية «ممثلة» في الدوافع الفطرية، ويدل على ذلك الحديث النبوي الذي سبق ذكره والذي جاء فيه قول الرسول ﷺ: «كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدِّق ذلك الفرج ويكذبه»[(١)].

ومن هذا الحديث نرى أن أجزاء الجسم؛ كالعينين، والأذنين، واليدين، والرجلين تقوم بالتنفيذ؛ وأما القلب ـ

---

(١) المرجع السابق، ٣/ ٢٠٤٧.

وقد تقدم أنه يشمل النفس في الاصطلاح الشرعي ـ فهو «يهوى ويتمنى» ؛ وعلى ذلك فالنفس ليست في معزلٍ عن الدوافع ، أو إشباعها بطريقة صحيحة أو سيئة ، أو كبتها أيضاً ؛ فإنها تتأثر بكل ذلك تأثراً إيجابياً أو سلبياً ، وذلك بحسب الأسلوب الذي تُشبع أو تُكبت به .

وإذا كان هذا الإشباع ذا أثر تربوي نفسي ، فهو ذو أثر تربوي جسدي بلا شك ، وقد أدرج الحديث ـ هنا ـ عن إشباع الدوافع الفطرية في معرض ذكر أثر العبادة في تربية الجسم لأن ارتباط هذه الدوافع بالجسم أعمق ، وتأثيرها فيه أوضح ؛ ولو أخذنا مثلًا دافع الطعام والشراب ففي حالة عدم تلبية الحاجة للطعام والشراب فإن نتييجة ذلك الجوع أو العطش المفضي إلى الموت ، فلابد أن تلبى حاجة الجسم لذلك ؛ وإلا فإنه يموت ؛ بينما أثر كبت هذه الدوافع الفطرية على النفس يكون أقل من أثره على الجسم ؛ ولو أخذنا مثلًا لذلك الدافع الفطري إلى

الجنس، إذا لم يشبع عند الفتاة فإنه يؤدي إلى العنوسة مع ما يصاحبها من كآبة وحرمان نفسي ولكن أثر ذلك لا يؤدي إلى الموت، وقد يبدو أثر ذلك واضحاً على الجسم بصورة أكثر؛ فنجد الفتاة العانس تكثر الشكوى من الأوجاع والأمراض الجسدية، وإزاء ذلك فلا نملك إلا القول بضرورة إشباع هذه الدوافع التي قد فطر عليها الإنسان بطريقة شرعية سليمة تلبي حاجات الجسد وحاجات النفس في آنٍ واحد، وتضمن للفرد نمواً جسمياً ونفسياً متوازناً.

ومع أن العبادة هي غاية الوجود الإنساني فإنها لا تنطوي على ما يسوّغ تجاهل حقوق الجسم بحجة الانشغال بها؛ ولذلك لم يقر الرسول ﷺ أولئك النفر الذين أرادوا الإكثار من العبادة متجاهلين حقوق أبدانهم وأنفسهم عليهم، وكان من تعليمه لهم ولغيرهم من الناس قوله لعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: «ألم أخبر

أنك تصوم ولا تفطر وتصلي الليل؟ فلا تفعل؛ فإن لعينك حظاً، ولنفسك حظاً، ولأهلك حظاً، فصم وأفطر، وصل ونم . . . الحديث»[(١)].

وحق البدن من الطيبات مشروع لا شبهة فيه ولا ريب؛ وهو يندرج تحت مراد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[(٢)].

والعبادات عموماً ـ والعملية منها بشكل خاص ـ إنما يشارك الجسم في أدائها مشاركة كبيرة؛ وفي ذلك تربية للجسم، وتقوية له، وتنظيف وتطهير؛ بل إن فيها تعبيداً له لله عزّوجل بمعنى أن الجسم لا يؤدي العبادة وهو في معزل عن روحها؛ فإنه بذلك يتعبد لله، يخشع، ويتحرك، وينطلق، ويشارك، وآثار العبادة في النفس تبدو مظاهرها على الجسم في سلوكه وتصرفاته، وفي نشاطه وخموله،

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوريو الجامع الصحيح مرجع سبق ذكره ٢/ ٨١٥.

(٢) سورة القصص: ٧٧.

وفي إشراق الوجه ونوره أو في قتامته وإظلامه.

ويضاف إلى هذا ما تحدثه العبادة في الجسم من آثار ظاهرة نتيجة التمرين والحركة، فالصلاة؛ ابتداءً بالوضوء ثم المشي إلى المسجد، وإقامة الصلاة المفروضة مع ما يسبقها أو يلحقها من نوافل، وما يتبع ذلك من المشي إلى البيت، كل ذلك له أثر في قوة الجسم ونظافته ورياضته، وكذلك الصيام يعود المعدة والأمعاء والأعضاء الأخرى على الصبر عن الأكل والشرب؛ وفي ذلك تربية وتقوية وتمرين، وهذه كلها فوائد جانبية لا ينبني عليها هدف العبادة، وإنما هي عملٌ تعبديٌ خالصٌ يؤدى ابتغاءَ لمرضات الله وتقرباً إليه(١).

ومن العبادات ذات الأثر الواضح في التربية الجسمية «سنن الفطرة»؛ وهي أعمالٌ تمارس «عبادة» لله؛ وهي

---

(١) محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، مرجع سبق ذكره ص ١٢٦/ ١٥٣.

خصائص للمؤمنين، وجزءٌ من هويتهم المعنوية والمادية، وهي دليلٌ على فطرتهم الحنيفية، وعلى تمسكهم بشريعة دينهم القويم؛ يقول الرسول ﷺ: «الفطرة خمسٌ؛ الاختتان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط»(١) ويقول: «عشرٌ من الفطرة؛ قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء»، «قال زكريا: قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة»(٢).

يقول الحافظ ابن حجر في شرحه لهذه الخصال: «ويتعلق بهذه الخصال مصالح دينية ودنيوية تدرك بالتتبع؛ منها تحسين الهيئة وتنظيف البدن جملة وتفصيلاً، والاحتياط للطهارتين، والإحسان إلى المخالط والمقارن

(١) متفق عليه، صحيح مسلم ١/ ٢٢٢ و صحيح البخاري ٧/ ٥٦.

(٢) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح، مرجع سبق ذكره ١/ ٢٢٣.

بكف ما يتأذى به من رائحةٍ كريهةٍ، ومخالفة شعار الكفار من المجوس واليهود والنصارى وعباد الأوثان وامتثال أمر الشارع والمحافظة على ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ لما في المحافظة على هذه الخصال من مناسبة ذلك، وكأنه قيل: قد حسنت صوركم فلا تشوهوها بما يقبحها، أو حافظوا على ما يستمر به حسنها، وفي المحافظة عليها محافظة على المروءة وعلى التآلف المطلوب، لأن الإنسان إذا بدا في الهيئة الجميلة كان أدعى لانبساط النفس إليه؛ فيقبل قوله، ويحمد رأيه، والعكس بالعكس»[١].

ولا ريب أن في فعل هذه السنن صيانةٌ للبدن، ونظافةٌ له، ومحافظةٌ عليه من الأقذار والأوساخ التي تجتمع فتكون مواضع مناسبة لتكاثر الميكروبات المسببة

(١) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، بيروت: دار المعرفة: بدون تأريخ ١٠/ ٣٣٩.

للأمراض؛ وهذه الأقذار لابد أن تجتمع تحت الأظفار الطويلة، وداخل البراجم؛ وهي «عقد الأصابع التي في ظهر الكف»[١]؛ حيث تتسخ وتجتمع فيها بقايا الطعام، وتحت الشعر الكثيف في الآباط، وفي غيرها من المواضع، وتحت جلدة القلفة عند الأقلف؛ وهو غير المختون؛ مع ما يضاف إلى ذلك من شناعة المنظر وقبح المظهر؛ كما في الأظفار الطويلة؛ أو الشوارب الكثيفة المتدلية التي تغطي الشفة، وتلامس الطعام والشراب، وتمسك الغبار والوسخ، وكذلك الرائحة الكريهة المنفرة التي تنبعث من الآباط والمغابن في حالة تركها دون نتفٍ أو تنظيف.

ولكن فعل هذه السنن ـ وهي من جملة العبادات ـ فيه ما يضمن التخلص من هذه القاذورات؛ وبالتالي السلامة من الأمراض المتولدة بسبب تكاثر الميكروبات حولها.

---

(١) انظر: ابن حجر العسقلاني، المرجع السابق ١٠/ ٣٣٨.

وقد أثبتت الملاحظات والدراسات أن هناك من الأمراض ما يصيب غير المختونين بسبب تكاثر الميكروبات تحت جلدة القلفة التي تجتمع تحتها بقايا البول والوسخ، فتنتقل هذه الأمراض عن طريقهم إلى زوجاتهم؛ فتصاب بأمراضٍ مثل مرض سرطان عنق الرحم، وغيره؛ في حين أنه يندر وجود هذه الأمراض عند المختونين وعند زوجاتهم[١].

وهذه الصيانة الدورية التي يتفقد المرء فيها أجزاء بدنه، ويتعاهدها بالنظافة والتطهير وقص الزائد عن المألوف من ظفر أو شعر أو خلافه ينبغي أن لا تتعدى مدة الأربعين يوماً؛ وهذه المدة هي الحد الأقصى لذلك؛ كما وقت لذلك الرسول ﷺ؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «وُقت لنا في قص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف

(١) انظر: يوسف بن عبدالله العريفي، آداب استقبال المولود في الإسلام، الرياض: دار الوطن، ١٤١٢هـ، ص ٧٩، ٨٠.

الإبط، وحلق العانة أن لا نترك أكثر من أربعين ليلة»[(١)].

وعباده الله تقتضي طاعته فيما أمر، ومن أوامره ما أمر به لحفظ الجسم صحيحاً سليماً معافى؛ لكي يقوم بدوره التعبدي والخلافي في الأرض على أكمل وجه؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾[(٢)]. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾[(٣)].

وعبادته سبحانه تقتضي ـ أيضاً ـ اجتناب المحرمات؛ ومنها ما في اجتنابه وقاية للجسم من الأمراض وحماية له

---

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح، مرجع سبق ذكره ١/ ٢٢٢.

(٢) سورة الأعراف: ٣١.

(٣) (سورة المائدة: ٨٧، ٨٨،) وانظر أيضاً (البقرة: ٦٠، ١٦٨، ١٧٢)، (الأنعام: ١٤١، ١٤٢)، (الأنفال: ٦٩)، (النحل: ١١٤)، (طه: ٨١).

من الآفات؛ ومن ذلك الخمر، والميتة، والدم، ولحم الخنزير وأكل الحرام، والمخدرات، وسائر الخبائث؛ يقول تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ . . . .﴾[1].

وقد حرم سبحانه وتعالى هذه الخبائث وقايةً للجسم وحمايةً له من أضرارها؛ ومن ذلك مثلًا أن الحيوان يموت بسبب المرض، وقد ينتقل المرض إلى من يأكل لحمه إذا مات، والدم المسفوح هو المحيط الذي تتحرك فيه الميكروبات وقد حرّمه الله، وفي تناوله مجازفة في الصحة وتعريض للبدن للأمراض، ولحم الخنزير سبب للإصابة «بالطفيليات»، وقد حمى الله الإنسان من هذه الأضرار بتشريعاته الحكيمة العادلة، والإنسان إنما يعبد الله بتطبيق

(١) سورة المائدة: ٣.

شرعه وبذلك يحافظ على جسمه صحيحاً معافى[١].

ويكفي للدلالة على مدى ضررها أن الله سبحانه وتعالى سماها «الخبائث»، وهي تسمية تتضمن اتصافها بالخبث؛ وعلى العكس من ذلك تسمية «الطيبات» لما أحله الله، فهي تنطوي على وصفٍ لها بالنفع والفائدة؛ فهي طيبة في ذاتها، يقول عزوجل واصفاً النبي ﷺ بقوله: «يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث»[٢].

ج ـ العبادة والتربية الاجتماعية:

تولي التربية الإسلامية عنايةً واضحةً نحو تربية المجتمع المسلم على الروابط القوية من التلاحم، والتعاون، والشعور بمصلحة الجماعة، والحمية لها، ومناصحتها، وبذل ما في الوسع لشد أزرها، وتقوية جانبها، وحمايتها

(١) حسن إبراهيم عبدالعال، مقدمة في فلسفة التربية الإسلامية، الرياض: دار عالم الكتب ١٤٠٥هـ، ص ٩٧، ٩٨.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٧.

من أعدائها .

والتربية الاجتماعية في الإسلام تقوم أصلًا على أساس «وحدة المعتقد» ؛ فهي العنصر الأساس في توحيد الأهداف والاهتمامات والتصورات العامة لأفراد المجتمع ، وهذا يجعل الجماعة متقاربةً متآلفةً منسجمةً ؛ لا متنافرة ولا متناقضة ولا متضادة ؛ وذلك أن كل فرد من أفرادها يرتبط بغيره من أعضاء الجماعة المسلمة على أساس الإيمان بالله رباً لا شريك له ، وما يقتضيه ذلك من الإيمان بالرسل والأنبياء ، والنبوات والكتب ، والملائكة واليوم الآخر ، والقدر ، والجنة ، والنار . . . وما إلى ذلك ؛ وهذا ـ في الحقيقة ـ تأليفٌ متماسكٌ للناس على هذا الأساس ؛ وهو تأليفٌ ؛ أو جمعٌ متماسكٌ تماسك البنيان المرصوص ؛ كما جاء وصف ذلك في الحديث الشريف .

ثم يأتي دور العبادة في ترسيخ هذا التلاقي ؛ فالعبادة

هي التطبيق العملي للاعتقاد، وبالتالي فهي تترجم المشاعر والأحاسيس الأخوية بين المسلمين إلى واقع عملي، وهي تؤدي هذا الدور على صورتين.

الأولى: الهيئة الجماعية التي تؤدى بها معظم العبادات في الإسلام؛ فالصلاة ـ مثلاً ـ تجمع أفراد الحي، أو القرية، أو المجمع السكني، أو العاملين في مصنع، أو طلاب السكن الجامعي... خمس مرات في اليوم والليلة يؤدون فريضة الصلاة على هيئةٍ «جماعية»، وصفوف منتظمة، وحركات تعبدية موحدة، وأدعية موحدة؛ وهذا له دوره الفعلي في تأليف وتجميع الأفراد؛ مع تقويته وترسيخه للمشاعر الأخوية القائمة على أساس وحدة المعتقد، وصلاة الجمعة تجمع المسلمين في دائرة أوسع مرة كل أسبوع وصلاة العيدين مرتين في السنة، وهو اجتماع لمناسبات دينية «اجتماعية» سعيدة وصلاة الاستسقاء وفيها اجتماع على دعاء الله ورجائه والتطلع إلى

رحمته، وصلاة الكسوف والخسوف تجتمع فيها قلوب المؤمنين على طلب رحمة الله والخوف من عقابه . . . وهكذا.

وكذلك الأمر بالنسبة للصوم؛ إذ يصوم المسلمون كلهم في أقطار الأرض شهر رمضان ويمسكون ويفطرون في وقت واحد ـ مع الأخذ بعين الاعتبار فارق التوقيت بين البلدان ـ والزكاة عبادة تؤلف بين الأفراد وتجمع الأغنياء والفقراء على قاعدة الأخوة والتعاون والمحبة، والحج كذلك بما يكون فيه من توحيد الذكر واللباس والأداء . . . وهكذا.

وتأدية هذه العبادات على هيئة جماعية أمر مقصود جاءت النصوص الشرعية بالتأكيد عليه؛ وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[1]؛ فالركوع مطلوب؛ ولكنه مطلوب «مع الراكعين»؛ وليس

---

(١) سورة البقرة: ٤٣.

بشكل فردي، وغيرها من الأدلة كثير[١].

الثانية: الحث على التواد والتآلف والتعاون والتراحم وكل ما من شأن تقوية الروابط الاجتماعية بين المسلمين، ونبذ كل ما يمكن أن يضعف هذه الأواصر؛ ومن ذلك مثلاً ما يأتي:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾[٣].

---

(١) عبدالرحمن النحلاوي، التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة، بيروت: المكتب الإسلامي، الرياض: مكتبة أسامة، ١٤٠٢هـ، ص ٤٥، ٤٦، ٩٧.

(٢) سورة الحجرات: ١٠.

(٣) سورة التوبة: ٧١.

قول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[١].

وقوله: «الدين النصيحة» قلنا ـ أي الصحابة ـ لمن؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[٢].

وقوله ﷺ ـ فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره، التقوى ههنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[٣].

---

(١) متفق عليه، صحيح مسلم ١/ ٦٧، صحيح البخاري ١/ ٩.

(٢) متفق عليه، صحيح مسلم ١/ ٧٤، صحيح البخاري ١/ ٢٠.

(٣) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح، مرجع سبق ذكره ٣/ ١٩٨٦.

والعبادة في أدائها لدورها في التربية الاجتماعية تتعدى مجرد تقوية الروابط الاجتماعية بين أعضاء المجتمع إلى تنظيم علاقات المسلم كلها تنظيماً شاملًا ؛ فهي تربي المسلم على تنظيم علاقاته وروابطه بشكل متين ، ويأتي على رأس هذه الروابط والصلات «صلة العبد بالله» رباً وإلهاً ، وبصفته هو مخلوقاً له عابداً خاضعاً محتاجاً إليه في كل ظروفه وأحواله ؛ وكذلك علاقته بنفسه ؛ وهي علاقة المسؤلية ، وتوظيف القوى والطاقات النفسية والعقلية والبدنية والمادية لتحقيق الغرض الذي من أجله وجد الفرد ؛ وهو عبادة الله ، ومن العلاقات التي تنظمها العبادة أيضاً علاقة الولد بوالديه ، ورب الأسرة بأفرادها ؛ من زوج وبنات وبنين وأقارب ، وكذلك علاقة الجوار والرحم والقرابة ، وعلاقات المسلم بالمسلمين عامة ، وعلاقاته مع غير المسلمين أيضاً ؛ وقد تقدم ذكر طرفٍ من ذلك عند الحديث عن خاصية شمول العبادة بما يغني عن الإعادة .

د ـ العبادة والتربية العاطفية :

يعرف بعض علماء النفس العاطفة بأنها : «تنظيم وجداني ثابت نسبياً ومركب من عدة انفعالات تدور وتتبلور حول موضوع معين»[١] ؛ ومن أمثلة ذلك عاطفة الأمومة والأبوة ، والحب والكره ، والصداقة ، والطموح ، والعاطفة الدينية ، أو الوطنية ، وما إلى ذلك .

والعاطفة عبارة عن مجموعة مركبة من الانفعالات ؛ وتتميز عن الانفعالات بأنها ثابتة نسبياً ؛ بينما الانفعال يكون في الغالب عبارة عن «حالة عابرة طارئة» .

وهذه العواطف يمكن أن تتجه اتجاهات متباينة ؛ فتكون في اتجاه صحيح في آن ، وتكون خاطئة التوجه في آنٍ آخر ؛ ومن أمثلة ذلك عواطف الحب والكره ؛ فقد يحب الشخص إنساناً مصلحاً ؛ أو عالماً مرموقاً ؛ أو قائداً

(١) أحمد عزت راجع ، أصول علم النفس ، الإسكندرية : المكتب المصري الحديث ، ١٩٧٣ ، ص ٩٨ ، ١٢٣ .

مخلصاً لفضله وإخلاصه وتفانيه في خدمة الدين والمجتمع، وقد يكره مثل هؤلاء وتتجه عاطفة الحب عنده إلى شخص فاسد سيء يقتدى به في الإجرام والسرقة والاحتيال، وكذلك عاطفة الولاء، والصداقة، وغيرها.

وتلعب التربية دوراً هاماً في توجيه العواطف ووضعها في مسارها الصحيح؛ أو في تثبيتها وترسيخها وتعميقها؛ أو في محوها وتقليصها؛ كما هو الشأن في عواطف الكره والبغض، وما شابهها من العواطف السلبية.

والعبادة - في الإسلام - تقوم بدورٍ فعّال في هذا المجال؛ فإنها تربي في الفرد عواطفه الخيرة وتنميها، وتوجّه العواطف الأخرى إلى وجهتها الصحيحة، ومن ذلك عاطفة الحب والكره؛ فالحب يكون لله ولرسوله وللمؤمنين، ويكون حباً في الله، وينبثق عن هذا الحب حب الخير بوجه عام؛ وهو حب ما يحبه الله؛ وأما البغض فإنه يكون بغضاً في الله؛ فيبغض المؤمن أعداء الله من

شياطين الإنس والجن، ويتبع ذلك بغض الأشرار، وبغض الشرور التي يقومون بتنفيذها؛ يقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾[1]، ويقول الرسول ﷺ: «ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»[2].

ويقول تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ...﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: ١٦٥.

(٢) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح، مرجع سبق ذكره ١/ ٦٦.

(٣) سورة المجادلة: ٢٢.

وكذلك الأمر بالنسبة لعاطفة الولاء؛ إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ . . .﴾[1]. ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[2].

ويتبع الولاء في توجهه إلى الله وحده عواطف الرجاء، والخشية، والخوف، وما شابهها؛ بل إن العواطف كلها تتجه وجهة دينية تعبدية؛ فتحل العاطفة الدينية محل الولاءات القومية، والوطنية، والعنصرية، والقبلية، والحزبية؛ يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم

(١) سورة الممتحنة: ١.

(٢) سورة الممتحنة: ١٣.

مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[(١)]، ويقول عليه الصلاة والسلام ـ كما ورد في الحديث الآنف الذكر ـ: «وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار».

وفي مسار الحب لله وإخلاص الولاء له ولرسوله وللمؤمنين تكون صداقة المسلم مع غيره من الأفراد، ويكون جلساؤه وأصفياؤه، وهذا توجيهٌ لعاطفة الصداقة إلى الوجهة الصحيحة، وترسيخ لها، وتوظيفٌ لها في سبيل التربية النافعة؛ إذ أن الجليس يتأثر خيراً أو شراً بجليسه؛ يقول الرسول ﷺ: «إنما مثل جليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد

(١) سورة التوبة: ٢٣، ٢٤.

ريحاً خبيثة»[١].

وتزيد العبادة عواطف الأبوة والبنوة رسوخاً عن طريق الأمر ببر الوالدين وصلتهما واعتبار ذلك من أحب القربات إلى الله سبحانه وتعالى؛ فقد ورد عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «سألت النبي ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: الصلاة لوقتها، قال قلت: ثم أيُ؟ قال: بر الوالدين، قال قلت: ثم أيّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله...»[٢]، هذا قليلٌ من كثيرٍ من النصوص الواردة بهذا الشأن.

والعبادات في تعددها وتنوعها تلبي عاطفة الطموح وتوجهها وجهةً إيجابيةً خيرة؛ إذ أن العمل لله هو المجال النافع الذي يستحق أن تصرف به الجهود والأوقات وتوجّه له النشاطات وترضى به الطموحات.

---

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح، مرجع سبق ذكره ٤/٢٠٢٦.

(٢) المرجع السابق ١/ ٨٩.

ونجد كثيراً من التوجيهات المتعلقة بمحو العواطف السلبية وإحلال العواطف الإيجابية محلها في نصوص القرآن والسنة؛ ورغبةً في الاختصار وعدم الإطالة نكتفي بحديثٍ واحد، وهو حديثٌ شاملٌ في هذا المعنى؛ يقول فيه الرسول ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرىءٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرامٌ دمه وماله وعرضه»[1].

وهكذا نرى أن للعبادة دوراً كبيراً في الناحية العاطفية في الإنسان؛ إذ تتولاها بالتوجيه والتنمية والترشيد والترسيخ.

****

(١) المرجع السابق ٣/ ١٩٨٦.

الفصل الخامس

الآثار التربوية للعبادة

في هذا الفصل سيتم ـ إن شاء الله ـ استعراض بعض الآثار التربوية للعبادة؛ ويتضمن ذلك ما تحققه العبادة من منافع في النفس، والبدن، والسلوك، والتصرفات، والمشاعر والأحاسيس؛ وإن كان استقصاء ذلك ـ على سبيل الحصر ـ ليس من المتيسر في مثل هذا البحث المختصر؛ إلا أننا سنحاول ذكر شيءٍ من ذلك مستهدين بما ترشد إليه النصوص الكريمة، وسيتم ذكر الأثر التربوي للعبادة بإجمال أولًا؛ ثم يعقب ذلك بعض التفصيل لما تنطوي عليه العبادات الكبرى من آثار؛ مفردةً كل واحدة منها على حدة.

الأثر الإجمالي:

الأثر التربوي الإجمال للعبادة يتمثل فيما يأتي:

أ ـ زيادة الإيمان :

الإيمان يزيد وينقص ؛ كما يقرر ذلك أهل السنة والجماعة مستدلين بأدلة كثيرة ؛ مثل قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ﴾[١]، وقوله : ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[٢]، وغيرها من الأدلة التي لا يتسع المجال لإيرادها هنا، ومن أراد الاستزادة منها فعليه بالبحث عنها في مظانها من كتب العقيدة[٣].

والإيمان إنما يزيد بالعبادة، وينقص بالمعصية، أو التقصير في أداء العبادات المفروضة والمستحبة، وزيادة

---

(١) سورة المدثر : ٣١.

(٢) سورة الأنفال : ٢.

(٣) انظر مثلًا : ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سبق ذكره، ص ٣٨٤.

الإيمان وتكميله بحد ذاتها تكفي لأن تكون هدفاً تربوياً تبذل من أجله الجهود، وتصرف لتحقيقه الطاقات، وتوجّه نحوه البرامج والخطط، وإذا زاد الإيمان فلابد أن تظهر آثاره واضحةً تنبؤُ عن نفسها بصورة معتقداتٍ صحيحةٍ، وأفهامٍ سليمةٍ، وأخلاقٍ عاليةٍ ومواقف متزنةٍ، ونشاطٍ نافعٍ، وصلاحٍ عام؛ يقول الرسول ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»(١)؛ ومن العبادات التي تزيد في الإيمان قراءة القرآن، والاستماع إليه، وتدبره وهو يتلى؛ إذ يقول عزوجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٢)، ويقول: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ

(١) رواه الحاكم في المستدرك، وصححه الذهبي، انظر: أبي عبدالله الحاكم النيسابوري، المستدرك، مرجع سبق ذكره، ١/ ٣.

(٢) سورة الأنفال: ٢.

إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾[1].

والعلم الشرعي ـ كذلك ـ يزيد في الإيمان؛ إذ يقول فيه عزوجل: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾[2]، وإخبات القلوب إنما هو زيادة في الإيمان.

والعبادات عموماً تزيد في الإيمان؛ كما جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة؛ فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[3].

---

(١) سورة التوبة: ١٢٤.

(٢) سورة الحج: ٥٤.

(٣) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح مرجع سبق ذكره ١/ ٦٣.

ب ـ السعي إلى بلوغ الكمال الإنساني :

خلق الله الإنسان ولم يجعله ممحضاً لفعل الخير كالملائكة، ولا ممحضاً لفعل الشر كالشياطين؛ ولكن جعله بمنزلةٍ بين هاتين المنزلتين، وأودعه سبحانه من المواهب العقلية، والقدرات والطاقات الجسمية ما يجعله قادراً على الارتفاع بنفسه، والسمو بها إلى أن يصبح في درجة الملائكة؛ كما أن بإمكانه الهبوط والانحدار إلى درجة الشياطين؛ فيصبح من شياطين الإنس؛ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1]، وتزكيتها إنما تكون بعمل الطاعات والقربات، ومجانبه المعاصي والآثام التي تنحدر بالإنسان، وتغطي على منافذ الخير والتقوى، وتضعف الإيمان عنده؛ ويقول عزوجل

---

(١) سورة الشمس ٦ ـ ١٠.

عن الإنسان: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾[1]، والنجدان هما طريق الخير وطريق الشر، وطريق الخير ممتدٌ متصلٌ يرتفع بصاحبه ويسمو به إلى أن يصبح من «أصحاب الميمنة»؛ وذلك بفعل الخير والإحسان والأعمال التعبدية التي منها مثلًا؛ فك الرقاب وتحريها من الرق، وإطعام الطعام في المجاعات، والإحسان إلى اليتيم القريب أو المسكين الشديد الفقر والفاقة، والإيمان والتواصي بالصبر والرحمة؛ وأما طريق الشر فهو ممتدٌ أيضاً، ولكنه

---

(١) سورة البلد: ٨ ـ ٢٠.

ممتد في الاتجاه المعاكس إلى الانحدار والتقهقر والانحطاط بالنفس والخلق والعمل إلى درجة «أصحاب المشئمة» الذي يصلون إلى هذا المستوى بالكفر والجحود والتكذيب بآيات الله، وغيرها من أنواع الموبقات.

وبناءً على ذلك فإن الكمال والارتفاع يحصل بسبب العبادة الصحيحة الخالصة، والانحدار يكون بسبب المعاصي والآثام، وهذا هو ما يقرره شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «. . . . . فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم إلى الله وأقواهم وأهداهم أتمّهم عبودية الله . . »[١].

وذلك أن العبادة إنما هي هداية من الله ورشد، والله يزيد من اهتدى إليه وعَبَدَه هدايةً ورشداً؛ يقول عزوجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾[٢]، ويقول: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ

(١) ابن تيمية، العبودية، مرجع سبق ذكره ص ١١٠.

(٢) سورة محمد: ١٧.

﴿رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۝٧٦﴾[١].

ج ـ حصول الأمن النفسي:

من نتائج العبادة شعور الإنسان بسعادة وأمن واطمئنان نفسي ولذة وجدانية عالية؛ وذلك راجع إلى تلبية الحاجة الفطرية الموجودة عند الإنسان نحو التعبد، فيحصل له نوع من الرضا والاتياح والاتزان، ويفيض ذلك على نفسه وروحه وقسمات وجهه وجوارحه وأعضائه؛ يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٢].

وأداء العبادات من شأنه أيضاً أن يفرح الإنسان ونطمئنه؛ وذلك أنه بمجرد أداء ما افترض الله عليه، أو ندب إلى فعله تغمره فرحة وانشراح بسبب «الإنجاز» الذي حققه بتأدية التكاليف المفروضة أو المستحبة، والرسول

(١) سورة مريم: ٧٦.

(٢) سورة الأنعام: ٨٢.

ﷺ قد أخبرنا «أن للصائم فرحتان، فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه»[١]، والفرحة التي عند فطره ليست فرحة بالأكل أو الشرب فحسب؛ وإنما هي أعم من ذلك، وهي تتضمن الفرحة بإتمام الصيام المفروض، وتحصيل أجره، وعدم حصول ما يمنع ذلك[٢].

د ـ التحرر من العبودية لغير الله تعالى:

الإخلاص ـ في العبادة ـ شرط لقبول العمل، والعمل بدون إخلاص يعد شركاً، والشرك وبالٌ على فاعله، ولذلك شدّد الله سبحنه وتعالى على أهمية إخلاص العبادة له وحده دون سواه من الخلق، وقد جاء التأكيد على هذا المعنى في مواضع عديدة من القرآن والسنة؛ منها قوله

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح مرجع سبق ذكره ٢/ ٨٠٧.

(٢) قطب الدين القسطلاني، مدارك المرام في مسالك الصيام، بيروت: دار الكتب العلمية، لم يذكر تاريخ النشر ص ٧٧.

تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ . . .﴾(١)، وقوله: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾(٢)، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ . . . .﴾(٣).

ولذلك فالعبادة الصحيحة قصداً فعلًا تتضمن الإخلاص لله سبحانه وتعالى، ومن أخلص عبادته لله فقد قصرها عمّن سواه؛ وبذلك يكون قد تحرر من عبودية الطواغيت، ومن عبودية الإنسان للإنسان، ومن عبودية الأوثان والأحجار والشياطين، ومن عبودية الذات، ومن عبودية المال، والجاه، والسلطان، والزوجة والولد، والشرف والسمعة، ومن عبودية الأشخاص والأحزاب

---

(١) سورة الإسراء: ٢٣.

(٢) سورة طه: ١٤.

(٣) سورة آل عمران: ٦٤.

والقبليات والقوميات، ومن عبودية الأفكار الباطلة، والأحكام الوضعية، والتحاكم إلى غير الله.

ومن لا تحرره عبادته الله من كل ذلك فقد أشرك مع الله، والإخلاص شرط لقبول العبادة، أما من لم يعبد الله فلابد أن يعبد غيره، ويجعله له معبوداً يركن إليه شعر بذلك أم لم يشعر، وذلك أن القلب مفتقر إلى الله مفطور على التعبد له، إذ أن ذلك هو غاية وجوده؛ كما أنه مفتقر إليه من ناحية الاستعانة، والخلق والرزق، وما شابه ذلك، والقلب لا يطمئن ولا يسكن حتى يعبد الله، فإذا لم تشبع هذه الحاجة الطبيعية لديه بعبادة الله سلك القلب سبلًا معوّجة لإشباعها عن طريق صرف العبادة لغير الله، وبذلك لا يحصل له التحرر والانطلاق والاستغناء عن الخلق الذي يحصل لمن أخلص عبادته لله تعالى[1].

(١) ابن تيمية، العبودية، مرجع سبق ذكره ص ١١٠. وانظر: عبدالرحمن الباني، مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام، مرجع سبق ذكره ص ٦٩ ـ ٧٣. أمير عبدالعزيز، الإنسان في الإسلام، مرجع سبق ذكره ص ٥٠، ٥١، ٥٢.

بعض الآثار التربوية للعبادات الكبرى :

الصلاة :

الصلاة هي الصلة الدائمة المتكررة بالله سبحانه وتعالى ، وهي المنبّه الذي يذكِّر الإنسان بخالقه ، وما يجب عليه نحوه من عبادة وشكر ، خمس مرات في اليوم كلما انقضى جزء من اليوم انطلق صوت الأذان يدعوا المؤمنين إلى الصلاة ، فيتركون ما بأيديهم من أشغال ، وما بأفكارهم من مشاغل ، وينطلقون نحو مصدر النداء ، يؤدون شعيرة الله ، ويرجون رحمته ، ويتطهرون بأدائها مما قد يكون أصابهم من معصية وآثام ؛ وبذلك يحصل لهم من التزكية والتربية ما يصلح حالهم وحياتهم ؛ يقول الرسول ﷺ عن الصلاة : «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس

يمحوا الله بهن الخطايا»(١).

وهي مع ذلك راحة للنفس والقلب والضمير؛ تذكُر المرء بربه؛ فيستعين به على الصعوبات والأمور الحازية الشديدة، ويذكره فيرضى بحكمه، ويصبر على الشدائد في سبيله؛ ولذلك يقول تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾(٢)، وكان النبي الكريم ﷺ يقول لبلال إذا حزبه أمر: «أرحنا بها يا بلال»(٣)؛ أي أرحنا بالصلاة(٤).

وللصلاة أثرٌ في البعد عن الفواحش والمعاصي؛ حيث يؤديها المسلم فيتطهر بها، ويناجي ربه وهو يؤديها؛ فيتذكر حاله وواقعه إن كان سيئاً فيستحي من ربه، ويتراجع

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح، مرجع سبق ذكره ١/ ٤٦٢.

(٢) سورة البقرة: ٤٥.

(٣) أحمد بن حنبل، المسند، مرجع سبق ذكره ٥/ ٣٦٤، ٣٧١.

(٤) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سبق ذكره، ١/ ٦٩.

عن المحرمات والمنكرات خشية لله، وحياءً منه؛ يقول الله تعالى في ذلك: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾[(١)] والصلاة ـ مع ذلك ـ فيها تزكية للنفس، وتطهير لها؛ يقول تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾[(٢)].

الصيام:

الصيام تربيةٌ عمليةٌ بجانب كونه عملًا تعبدياً محضاً؛ فهو تربية مباشرة للنفس والبدن والأخلاق والعادات؛ إذ أنه لا يقتصر على ترك الطعام والشراب؛ ولكنه يتضمن الصيام عن المحرمات كذلك، ويتضمن الاندماج الكامل في العبادة لمدة معينة، ومن شأن ذلك أن يظهر أثره واضحاً في واقع الصائم وحياته؛ متمثلًا في «التقوى»

(١) سورة العنكبوت: ٤٥. وانظر: المرجع السابق ٥/ ٢٧٢٦.

(٢) سورة الأعلى: ١٤، ١٥.

يقول عزوجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾[١]، ويقول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[٢]، ويقول: «الصيام جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امروء صائم . . .» الحديث[٣].

والصوم له فوائد تربوية كثيرة تحدّث عنها كثير من علماء الإسلام، وسوف نلخص ما ذكره أحدهم ـ وهو الحافظ القسطلاني ـ فيما يأتي:

أولاً: تربية النفس، وتدريبها، وتيسير الأخذ بزمامها،

(١) سورة البقرة: ٨٣.

(٢) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، مرجع سبق ذكره ٢/ ٢٢٨.

(٣) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح، مرجع سبق ذكره ٢/ ٨٠٧.

وتخفيف تحكم الشهوات بها، يدل على ذلك ما روي عن النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[١].

ثانياً: إعانة الصوم للصائم على نزغات الشيطان وهوى النفس؛ إذ يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاربه بالجوع والعطش»[٢].

ثالثاً: الصوم يعرف المرء بنعم الله عليه والتي قد يغفل عنها نظراً لإلفه حياة الرغد والنعيم ولكن عند ما يذوق الجوع والعطش يعرف ضدهما ويتذكر نعم الله عليه فيشكرها.

---

(١) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، مرجع سبق ذكره ٦/ ١١٧.

(٢) مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح، مرجع سبق ذكره ٤/ ١٧١٢.

رابعاً: يعين على الصدقة؛ وذلك بسبب الجوع والعطش الذي يعرض للصائم؛ فيتذكر ما يقاسيه الفقراء الذين يتعرضون للجوع والعطش بسبب قلة ذات اليد.

خامساً: يعين النفس على الانطلاق في العبادة والخير؛ إذ أن الشبع الدائم يثقل المعدة ويرخي البدن، وخلو المعدة يضعف الجسد فتخشع الجوارح وتشرق النفس وتستعد للتعبد.

سادساً: صحة الأبدان؛ نظراً لقول الرسول ﷺ: «صوموا تصحوا»[١]، وكثرة الشبع، وامتلاء البطن من أسباب الأمراض، وفي الصوم إخلاءٌ للمعدة، وفي ذلك عافيةٌ لها، ومن صحة الأبدان تقوى الأذهان وتصفوا، والصوم يرقق القلوب، بينما كثرة الأكل تسبب البلادة

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه موسى بن زكريا، فإن كان الراوي عن شباب فقد تكلم فيه الدارقطني، وإن كان غيره فلم أعرفه، وبقية رجاله ثقات»، انظر: علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مرجع سبق ذكره ٥/ ٣٢٤.

في الطباع[١].

الـزكاة:

والزكاة أيضاً تربية للنفس على الكرم والبذل والعطاء، وهي تحرير للنفس من فتنة المال ومن استعباد المتاع الدنيوي الزائل، وتحرير للنفس من الشح والبخل والأنانية وتذكير لها بأفراد المجتمع من الفقراء والمساكين، وما يعانونه من صعوبات الفاقة والفقر وتنبيهٌ لها إلى أهداف الأمة وغاياتها في الجهاد وضرورة المشاركة في ذلك بالنفس والمال، وهي تربية للمشاعر النبيلة المتمثلة في مشاركة المحتاجين مشاركة فعلية، وتخفيف ما تعانيه الرقاب التي تحتاج إلى تحرير (في حال وجودها)، وابن السبيل المنقطع الذي يحتاج إلى زاد، والغارمين الذين لا يجدون ما يؤدي عنهم ما غرموه، والعاملين في الزكاة الذين

---

(١) الحافظ قطب الدين القسطلاني، مدارك المرام في مسالك الصيام، مرجع سبق ذكره ص ٧٠ ـ ٧٩.

لابد لهم من نصيب فيها فريضةٌ لهم من الله لا من غيره.

والزكاة طهرةٌ وتزكيةٌ من الذنوب وتكفير عن الخطايا؛ يقول عزوجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣﴾[1].

وكفى بها تربية للنفس أنها تحارب الشح، والطمع، وحب المال المفرط، والشح داءٌ عضال من يسلم منه ينطلق في حياته باذلًا عاملًا منتجاً متعاوناً، ويقول عزوجل: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

الحج:

وأما الحج فإنه ممارسة حياتية كاملة لشعائر تعبدية معينة ولفترة معينة، ويتم فيه انتفاع الحاج بمنافع كثيرة؛ من ضمنها الجانب التربوي؛ يقول عزوجل: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧

(١) سورة التوبة: ١٠٣.

(٢) سورة الحشر: ٩.

لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾(١).

ومنافع الحج عامةٌ شاملةٌ، ولكن مما لاشك فيه أن الجانب التربوي يحظى بنصيب وافر من العناية والاهتمام، وذلك أن الحج ليس تأدية آلية لممارسات عادية لا روح فيها؛ إذ أنه لو كان كذلك لما تحقق الغرض الذي شرع من أجله، ولما شهد الناس المنافع التي ذكرها الله في الحج؛ وإنما الحج تطبيق كامل لشعائر معينة تؤديها الجوارح والروح معاً، وإذا تحقق ذلك فعلت فعلها في نفوس الحجاج، وهو فرصة للتزود بالتقوى؛ حيث يكون المرء متفرغاً لعبادة ربه خلال أيام الحج؛ يقول تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)﴾(٢).

---

(١) سورة الحج: ٢٧، ٢٨.

(٢) سورة البقرة: ١٩٧.

قراءة القرآن :

قراءة القرآن من العبادات الكبرى التي يؤجر فاعلها أجراً كبيراً؛ وهي سبيلٌ من سبل التربية الفريدة، وذلك لما يتصف به القرآن من جاذبيةٍ ذاتيةٍ بحكم كونه كلام الله الحق المنطوي على الحق، والذي تكلم به خالق الخلق الذي يعلم ما يصلحهم ويؤثر فيهم، وما يهديهم وما يغويهم، ويكفي أن نذكر هنا بعض الآيات التي تدل على ما يتضمنه من هدى وتربية:

يقول عزوجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

ويقول: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[2].

ويقول: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا

---

(١) سورة الإسراء: ٩.

(٢) سورة البقرة: ١٨٥.

مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[(١)].

ويقول: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾[(٢)].

ويقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[(٣)].

ويقول: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾[(٤)].

ويقول سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٥)].

ويقول: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥﴾[(٦)].

ومن منطوق هذه الآيات الكريمة يتضح أن القرآن الكريم هدى وشفاء ورحمة وذكرى وحجاب للمؤمن من

---

(١) سورة الحشر: ٢١.

(٢) سورة ق: ٤٥.

(٣) سورة محمد: ٢٤.

(٤) سورة الإسراء: ٧٨.

(٥) سورة الإسراء: ٨٢.

(٦) سورة الإسراء: ٤٥.

الكفر وأهله، وهذا له مردود مؤثر جداً في تربية قارىء القرآن المتدبر له الباحث عن معانيه وأوامره ونواهيه، وهذا المردود يظهر بشكل فعّال في التربية الإيمانية والوجدانية والنفسية، والخلقية، والعقلية، والعاطفية للأفراد، وقد كان ذلك متمثلًا بشكل كامل في شخص المصطفى المعصوم عليه الصلاة والسلام؛ إذ تقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن»[1]؛ فهو قد كان صورة حية لأخلاق القرآن، وهو القدوة الحسنة للمسلمين إلى يوم القيامة؛ يقول عزوجل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[2]؛ وبهذه التربية القرآنية المتكاملة ربّى عليه الصلاة والسلام صحابته الكرام؛ حتى إنهم كانوا يوصفون بأنهم قرآن يمشي على الأرض، وقد وصلوا إلى

(١) أحمد بن حنبل، المسند، مرجع سبق ذكره ٦/ ٩١، ١٦٣.

(٢) سورة الأحزاب: ٢١.

المستوى لأنهم كانوا قمةً في التلقي والتنفيذ لما في القرآن من أحكام وعقائد وأخلاق وواجبات أو مندوبات، وكانوا لا يتجاوزون العشر آيات حتى يحفظونها، ويتعلمون ما تتضمنه من عقائد وأحكام وفقه؛ فيبادرون إلى العمل بما تقتضيه ويطبقون ذلك على أنفسهم وأهليهم وفي واقع مجتمعهم؛ ولذلك فقد فعل القرآن فعله في نفوسهم، فخرجوا من بيئتهم المحدودة وعصبيتهم الجاهلية وقبليتهم الضيقة إلى رحابة الإيمان وطاقاته وأخوته، فكسروا الأطواق وباشروا الجهاد، وقوضوا امبرطوريات عصرهم وأصبحوا سادة الدنيا بعد أن كانوا كماً مهملًا في حساب الأمم(١).

والقرآن يربي النفوس ويصلحها بطرق كثيرة؛ منها «طمأنته» لها بذكر بعض الحقائق التي لابد من معرفتها

---

(١) انظر: محمد شديد، منهج القرآن في التربية، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ، ص ٩ ـ ١٥.

لكي تشعر بالراحة والاطمئنان، ولو لم تكن على يقين بهذه الحقائق لطالها كثيرٌ من العناء والقلق، ومن ذلك مثلًا حقيقة الموت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾(١) و﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ﴾(٢)، وحقيقة الرزق: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾(٣)، وحقيقة القضاء والقدر: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾(٤) وحقيقة العمل والاستقامة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٥)،

---

(١) سورة الذاريات: ٢٢.

(٢) سورة المنافقون: ٩.

(٣) سورة هود: ٦.

(٤) سورة الحديد: ٢٢، ٢٣.

(٥) سورة الأحقاف: ١٣.

وحقيقة قبول التوبة: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾[1]؛ وغير ذلك من الحقائق التي تدخل الراحة والسرور والاطمئنان إلى النفس؛ فتسلم من القلق والحيرة، واليأس والقنوط، والخوف والتردد، وغير ذلك من المعوقات النفسية؛ وعند ذلك تصفوا وتتهيأ للعمل والإنتاج[2].

والقرآن عبادة في تلاوته وتدبره وتطبيقه، وهو مع ذلك يربي قارئه المتدبر له بأساليب عديدة؛ منها مثلًا القصة، وضرب المثل، والحوار، وذكر الموعظة والاعتبار، والوعد والوعيد، وما إلى ذلك من أساليب تكون نتيجتها تربية متكاملة للفرد من كافة نواحيه؛ فالقرآن يربي السلوك والأخلاق، ويربي العقل والفكر على التدبر والتفكير والنظر إلى المستقبل في ضوء الاعتبار بالماضي، ويربي

(١) سورة النساء: ١١٠.

(٢) محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، الطبعة الثانية، بيروت: دار الشروق ١٤٠٥هـ، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٩.

القلب على الإنابة والخضوع لله والتوجه له سبحانه وتعالى ؛ كما يرتقي بالعواطف ويربيها ويضعها في طريقها الصحيح ، والقرآن عربي نزل بلسان عربي مبين ؛ كما يقول عزوجل : ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[(١)] ، وهو في غاية البيان والفصاحة ؛ لأنه نزل من لدن حكيم خبير ؛ ولأنه كلام الخالق جلا وعلا ، وهذا له نتيجته الهامة بشأن تحسين النطق ، وتقويم الألسنة ، وتعديل الألفاظ ، والبعد بها عن الركاكة في الأسلوب وسوء الاستعمال ، وتربية اللسان وتمرينه على الفصاحة والبلاغة والبيان .

الجهاد :

الجهاد «ذروة سنام الإسلام»[(٢)] كما وصفه الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه ، وذلك أن المجاهد يكون قد بلغ درجة عالية من التربية ومن الإخلاص

(١) سورة فصلت : ٣.

(٢) أحمد بن حنبل ، المسند ، مرجع سبق ذكره ٥/ ٢٤٦.

والعطاء والبذل؛ حتى إنه ليجود بنفسه ويبذلها سخية في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ولإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهو في هذا إنما يكون قد قطع شوطاً من الصبر، ومن مكابدة المشقات، ومن منازعة النفس والهوى والأهل والولد والمال، وتزيينهم له أن يخلد إلى الأرض ويركن إلى المتاع الدنيوي ولكنه تخطى ذلك كله، ومضى في الطريق الوعر، متجاهلًا المخاطر؛ لأنه واثق من النهاية الحميدة، وهي النصر أو الشهادة، ومن يكون قد بلغ هذا المبلغ فهو قد تمتع بمستوى تربوي عالٍ وهو مع ذلك يظل إنساناً يعرض له ما يعرض لبني جنسه من الضعف؛ ولكنّه وهو يجاهد يكون في عبادةِ لله واتصالٍ به والله سبحانه وتعالى لن يتركه[1]، وقد قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾[2].

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سبق ذكره، ص ٥/ ٢٧٥٢.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٩.

ونحن نفترض أن المجاهد يكون قد بلغ درجة طيبة من التربية ومن الإخلاص والصبر لأن الجهاد يختلف عن غيره من الحروب؛ فهو لا يقتصر على معنى الحرب، وهو جهاد في سبيل الله ضد القوى الخارجة عن النفس والتي تقف في وجه دعوة الإسلام، ومن يتصدى لهذه القوى مجاهداً لها فهو قد انتصر على نفسه، والنفس لابد لها من مجاهدة، ومجاهدتها مرحلة سابقة على جهاد القوى الخارجة عن النفس؛ ولذلك يقول الرسول ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»[1]، ومن يجاهد نفسه وينتصر على أهوائها يبقى أمامه عدو آخر يحتاج لمجاهدته وهو الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ

(١) أحمد بن حنبل، المسند، مرجع سبق ذكره ٦/ ٢١، ٢٢، وأخرجه الحاكم في المستدرك، انظر: أبي عبدالله الحاكم النيسابوري، المستدرك، مرجع سبق ذكره ١/ ١١، وصححه الألباني، انظر: محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، مرجع سبق ذكره ٢/ ٨١، ٨٢.

عَدُوًّا﴾[١]، ومن يتصدى لجهاد القوى الخارجة يكون قد تعدى مرحلة جهاد النفس وجهاد الشيطان المثبط وانتصر فيهما؛ وتلك نقلة تربوية لا يستهان بها، وهذا لا يعني أنه أصبح في مأمن من كيد الشيطان وهوى النفس؛ ولكن لابد له من مواصلة مجاهدتهما في جولاتٍ قادمة لا تنتهي مادام على قيد الحياة[٢].

يضاف إلى ذلك أن لفظ «المجاهد» لقبٌ لا يستحقه إلا المجاهد فعلًا؛ والمجاهد فعلًا هو من أخلص عمله لله، ومن أخلص لله جهاده فقد انتصر على مطامع نفسه فيما تتطلع إليه من غرض دنيوي؛ يتمثل في الجاه، أو المال، أو السمعة، أو الرياسة، أو ما شابه ذلك؛ يقول عزوجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ

(١) سورة فاطر: ٦.

(٢) ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، بيروت: دار الفكر ١٩٧٣م، ص ٥ ـ ٧.

ٱلطَّـٰغُوتِ. . . . . ﴾[١] ولما سأل أعرابي رسول الله ﷺ قائلًا له: «الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟، قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[٢]، وسأله ـ مرة ـ رجل بقوله: «يا رسول الله أرأيت رجلًا غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيء له»، فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله : «لا شيء له»، ثم قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه»[٣].

---

(١) سورة النساء: ٧٦.

(٢) متفق عليه، صحيح مسلم ٣/ ١٥١٣، صحيح البخاري ٤/ ٥١.

(٣) رواه النسائي في سننه، وقال الألباني: «حسن صحيح»، انظر: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن النسائي، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٤٠٨هـ، ٢/ ٦٥٩. وانظر أيضاً: أبو الأعلى المودودي، الجهاد في سبيل الله، بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، ١٣٨٩هـ، ص ١٩، ٢٠.

ومع ذلك فالمجاهد بشر، والبشر خطاء، وقلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء، والإنسان يتقلب من حال ضعف إلى قوة، ومن قوة إلى ضعف، وليست العصمة لأحد سوى الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، ولكن العبادة بشكل عام تربي المسلم وتعينه في التغلب على ضعفه، والجهاد بالذات له من ذلك نصيب وافر، وهو مدرسة حيّة يتعلم فيها المجاهدون حياة الجهاد على حقيقتها بما فيها من مشاق وصعوبات ومخاطر فيتعلمون من ذلك خبرات شتى، ويتدربون على فضائل كثيرة؛ منها مثلًا الصبر، وتحمل الصعوبات، والرجولة، والاستعلاء على الكفر وأهله، والقوة، والفروسية، وصلابة العود، وقوة النفس والقلب، وصرامة الإرادة، والفداء، والتضحية وغيرها من الفضائل التي يتعلمها المجاهد في حياة جهادية يتم فيها التدريب والتمرين في الميدان الحقيقي «ميدان المعركة».

الذكر:

الذكر في اللغة هو «الحفظ للشيء تذكره»، وهو أيضاً «الشيء يجري على اللسان» وفي الاصطلاح الشرعي يعني ذكر الله، وما يتضمن ذكره؛ مثل الصلاة، وقراءة القرآن ويطلق لفظ الذكر على التسبيح، وعلى الدعاء، وعلى الشكر، وعلى الطاعة[١].

والذكر ليس مقصوراً على التسبيح والتهليل والتكبير والتحميد ونحوها؛ وإنما هو شامل لكل الطاعات؛ فكل عمل طاعة لله فهو «ذكر لله»؛ ولذلك لم يحصر العلماء معنى «مجالس الذكر» على المجالس التي تعقد للتسبيح والتهليل والدعاء؛ وإنما اعتبروا كل مجلس علم تناقش فيه قضايا الحلال والحرام، وأمور الفقه والأحكام، وما شابهها «مجلس ذكر» فمجالس العلم التي يذكر فيها الله

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سبق ذكره ٤/ ٣٠٨، ٣١١.

ومجالس الطاعات كلها مجالس ذكر[(١)].

والذكر يكون على مراتب بحسب حضور القلب مع اللسان، أو انفراد أحدهما بالذكر عن الآخر، وفي ذلك يقول الإمام النووي: «والذكر يكون بالقلب، ويكون باللسان، والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعاً، فإن اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل»[(٢)].

وذكر الله حياة للقلوب، وصلاح للسلوك، وصفاءٌ للذهن؛ ولذا جاء الحديث عنه في القرآن الكريم مرتبطاً دائماً بمن آمن بالله، ثم استقام على منهجه، وارتفع عن الدنايا والموبقات وجاء الحديث عن نسيان ذكر الله ملازماً لمن لم يستقم في حياته وعمله وسلوكه بشكل عام؛ يقول عز وجل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا

---

(١) يحيى بن شرف النووي، الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٣٧٥هـ، ص ٩.

(٢) المرجع السابق ص ٨.

وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ ﴾[١]، ويقول: ﴿ إِنَّ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِى ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾[٢].

وأما الغفلة عن ذكر الله ونسيانه فيقول عنه تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ ﴾[٣]، ويقول: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ ﴾[٤].

بل إن ذكر الله له أثره المباشر على الفريقين كليهما؛ ولكن كلًّا منهما يتأثر به بحسب ما يعيشه من واقع فاسد أو

---

(١) سورة الشعراء: ٢٢٧.

(٢) سورة آل عمران: ١٩٠، ١٩١.

(٣) سورة النساء: ١٤٢.

(٤) سورة الزخرف ٣٦.

صالح؛ يقول عزوجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(١) ويقول أيضاً: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾(٢).

وهذا طرفٌ من الأثر التربوي لذكر الله وتذكر قدرته وآلائه وعدم الغفلة عن ذلك، ولا يتسع المجال لاستقصاء معاني الآيات والأحاديث المتعلقة بذلك؛ ولكن حسبنا أن نذكر قوله عزوجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾(٣).

وطمأنينة القلوب بذكر الله ـ كما يذكر سيد قطب رحمه الله ـ طمأنينة عامة تشمل الأنس بالصلة بالله، والسلامة من حيرة الشك، والاطمئنان إلى الإيمان، ومعرفة المصير والمنقلب، وإدراك الحكمة من الوجود، والصبر على

(١) سورة الأنفال: ٢.

(٢) سورة الزمر: ٤٥.

(٣) سورة الرعد: ٢٨.

الشدائد، والشكر على النعم، وما يتعلق بالقلوب من راحة ورضى واطمئنان عام؛ وهي طمأنينة يجدها المؤمن في أعماله حية عميقة ويعيشها في واقعه، وقد يصعب عليه تصويرها؛ ولكن مجرد تصورٌ من يعيش مقطوعاً عن ذكر الله والصلة به يقربها إلى الذهن، إذ أن من ينقطع عن الصلة بالله يعيش في غاية التعاسة والشقاء النفسي، وهي صورة مقابلة لاطمئنان القلوب الذي يحصل لها بذكر الله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾»[1].

والذكر له فوائد ونتائج تربوية كثيرة، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن للذكر أكثر من مائة فائدة يحصل عليها الذاكر؛ إما في الدنيا، وإما في الآخرة، وقد سرد منها تسعاً وسبعين فائدة مستنبطة من نصوص القرآن والسنة، ومن هذه الفوائد ما له دلالات تربوية هامة؛ مثل أن الذكر يطرد الشيطان، ويرضي الله عزوجل، ويزيل الهم والغم

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سبق ذكره ص ٤/ ٢٠٦٠، ٢٠٦١.

عن القلوب، ويقوي القلب والبدن، وينير الوجه والقلب، ويجلب الفرح والسرور والرزق، ويورث محبة الله، ويجعل الذاكر دائم المراقبة لله، كثير الإنابة والرجوع إليه، ويزيد المعرفة، ويورث الهيبة لله عزوجل، ويحي القلب، وهو قوت للروح والقلب، وهو يجلو القلوب من الصدأ الذي تسببه الغفلة والهوى، وهو سبب للسكينة، ومشغل للقلب عن الغيبة والنميمة والكذب والباطل، ويجعل الذاكر جليس بركة يسعد به جليسه، وهو يؤمن العبد من نسيان ربه، ويسد فاقة القلب وخلته فيغنيه عن الخلق، وهو شفاء للقلب ودواء يعين على الطاعات ويسهلها، ويحببها للذاكر، ويسهل المصاعب، ويعطي الذاكر قوة عند الشدائد، وغير ذلك من الفوائد(١).

******

---

(١) شمس الدين ابن القيم، الوابل الصيب من الكلم الطيب، دمشق: مكتبة دار البيان، ١٣٩٣هـ، ص ٦٩ـ١٦٦.

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير خلقه وخاتم أنبيائه محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فمِمَّا تقدَّم يتبين لنا ضرورة اعتبار «العبادة» بصفتها أساساً للتربية، ودعامةً من دعائمها، ولا يكفي مجرد الاعتبار المعنوي؛ وإنما المطلوب هو الاعتبار الفعلي التطبيقي ابتداءً من التخطيط، ورسم السياسات، وتحديد الأهداف، وإيضاح الغايات، وانتهاءً بالعملية التربوية المباشرة المتعلقة بصياغة الأفراد وبناء المجتمعات.

والعبادة إما هي أساسٌ من أسس التربية لأسباب عدة؛ فهي تنتظم الكون، وتشمل الحياة فيه بشكل عام، وهي تتضمن جوانب النشاط الإنساني كلها، وهي صلة

المخلوق بخالقه، وهي الإشباع السليم لحاجة الروح الفطرية نحو التعبد، والتوجه نحو الله بالتأله والحب.

وهي التي يؤديها الفرد خالصة لله فينطبع بآثارها، ويتربى بها روحاً وعقلًا وجسماً؛ فيزيد إيمانه، ويتحرر من العبودية لغير الله، وتأمن نفسه، ويرتاح ضميره، ويزكوا سعيه، ويزداد رصيد التقوى لديه، وتكون هي طريقه إلى الكمال الذي شاء الله له أن يبلغه وفق حدود طبيعته البشرية، وهي فوق ذلك كله الغاية التي خلق الله الخلق لأجلها.

وفي الختام نرجوا الله تعالى أن يجعلنا ممن يعبده، ويخلص قصده في عبادته، ويتربى في مدرسة العبادة، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

******

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

*****